أشهر قصص العشاق والمتيمين

عبر التاريخ

ولطائف من رسائلهم وطرائفهم ونوادرهم الشعرية

محمد إبراهيم سليم

دار الطلائع
للنشر والتوزيع والتصدير
٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعي - ناصية امتداد مكرم عبيد
وسمير فرحات - مدينة نصر - القاهرة - فاكس ٢٤٨٠٤٨٣
تليفون ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٧٤٤٦٤٩

وكلاء التوزيع

السعودية

الدار البيضاء : الرياض – حي عليشة – ٦٣ شارع أحد متفرع من شارع العريجا العام
ص. ب : ٨٩٥٦٢ الرياض – تليفون : ٤٣٥٩٠٦٦ – ٤٣٤٠٣٥٠ – فاكس : ٤٣٥٥٧٠١

المغرب

دار الاعتصام : 35/33 الممر الملكي – الأحباس – الدار البيضاء – ت : 85 42 30
فاكس : 39 45 44 02 212 00

الإمارات

دار الفضيلة : دبي – ديرة – ص. ب : ١٥٧٦٥ – ت : ٦٩٤٩٦٨ – فاكس : ٦٢١٢٧٦

البحرين

دار الحكمة : ص. ب : ٢٣٨٧٥ – هاتف : ٣٣٦٠٣٢

الجماهيرية العربية الليبية

دار الفرجاني : ص. ب : ١٣٢ – هاتف : ٤٤٨٧٣ – ٦٠٤٤٣١ طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية

فلسطين

مكتبة اليازجي : غزة – شارع الوحدة – فاكس : ٨٦٧٠٩٩ – ت : ٨٦١٨٩٢

اليمن

مكتبة العامرية للنشر والتوزيع : صنعاء – الخط الدائري الغربي
ص. ب : ١٤٤٦٦ – ت : ٢٧٧١٦٨ فاكس : ٢٦٧٢٦١

الأردن

مؤسسة دار المعرفة للتوزيع : العبدلي – شارع الملك حسين
هاتف وفاكس : ٤٦٥٤٦٩٢ ص. ب : ٨٤٠٢٤٥ عمان ١١١٨٤ الأردن

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء فى «زهر الآداب» للحُصْرى : «أن شيخا بخراسان كان يعلم طلابه الحكمة ، فكان يسألهم بين الحين والحين :

- أفيكم عاشق ؟

فإذا قالوا : لا ، قال لهم :

* اعشقوا ، فإن العشقَ يُطلق الغَبِىّ !

* ويفتح جِبِلّةَ البليد !

* ويُسَخِّى البخيل !

* ويَبْعَثُ على النظافة ، وحسن الهيئة !

* ويدعو إلى الحركة والذكاء وشرف الهمة !

* وإياكم والحرام ! » .

وهذا ما نهدف إليه من معايشة «العشاق والمتُيَّمين»[1] ، بعد أن كاد الحب يختفى من حياتنا أمام مشاعر الكراهية والحقد والعنف ! فلا علينا إن نحن عرضنا تلك النماذج العفيفة الشريفة التى ظلت على الأيام سناء وسَنًى !

ولقد عشق أكثر العرب ، بل جلهم قد عشق إن لم يكن كلهم ، وأما من عشق من الشعراء ، فما يحصرهم عدد ، ولا يُحصيهم أحد !

وها هو ذا كتابنا : «**أشهر قصص العشاق والمتيمين**» يضم خمسة أبواب ومقدمة .

أما المقدمة فهى تسلّط الأضواءَ على الهوى ، وحقيقة ما يلقاه المحبون ، والسبب فى العِشق ؛ أهو العين أم القلب ؟

ويتضمن **الباب الأول** : عددا من المشتهرين بالصبوة والغزل ، ومتابعتهم فى مسيرة حُبّهم ، وسوف تجد أن لكل أقصوصة من الأقاصيص الغرامية مذاقًا

(١) جمع مُتَيم ؛ يقال : تيّمه الهوى أو الحبيب : ذهب بعقله !

خاصّا ؛ فهى تصور لونا مختلفا من أهواء القلوب ، وأوطار النفوس[1] .

ويحمل **الباب الثانى** : أعجبَ قَصص الحب ، أما **الباب الثالث** ، فقد تضمن أروعَ ما تبادله المحبون من رسائل وشعارات حُلْوة تبعث البهجة والسرور !

ويأتى **الباب الرابع** ليقدم لنا أحلى ما يُروى عن المحبين من طرائف تمتع النفس ، وتسر الخاطر .

ويأتى **الباب الخامس** ليكون مسك الختام حيث نقف فيه وقفة مع أصدق التجارب التى مر بها المحبون ! ، والتى لخصها ابن الرومى فى قوله :

فـــــالموت إن نـظَـرَتْ ، وإن هِـىَ أَعْـــــرَضَـتْ
وَقْـعُ الـسِّـــــهـــــامِ ونَـزْعُـــــهـنّ أليـمُ !

وبعد ، فعسَاىَ أن أكون قد وُفقت فيما اخترت .

وعساك أن ترضى بما قدمتُه ، وأقدمه لك بين الحين والحين !

فإلى الملتقى ...

محمد إبراهيم سليم

القاهرة : فى شهر المحرم ١٤١٩ هـ
الموافق شهر مايو ١٩٩٨ م

---

(١) جمع وطَر ، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة ، وقضى وطره : أى بغيته .

بين يَدَيِ الحُبّ !

سُؤالٌ عَنِ الهَوى والرأىُ مختلفُ !

سَلْنى عن الحُبِّ يامَنْ ليسَ يَعْرفُه
مـــا أطيبَ الحُبَّ لَولاَ أنه نَكَـــدُ ! (*)

سؤال عن الهوى

سئلت أعرابية عن «الهوى» فقالت :

الهَوَى : هو «الهَوانُ» وإنما غُلط باسمه ، ولن يعرفَ ما أقول إلا مَن أبكته المنازلُ والطُّلول [1] ، ثم أنشأت تقول :

لَيْتَ الهَوَى لذَوِى الهوى لم يُخْلَقِ ... بل ليت قلبى بالهَوَى لم يَعْلَقِ
إن الهَوَى لهُوَ الهَوانُ بعَينهِ ... ماذاقَ طعمَ الذُلّ مَن لَّم يَعْشَقِ

وللكُمَيْتِ بنِ زيدٍ رأى !

فمع ما فى الحُبِّ من المرارة والنكد ، وطول الحسرات والكَمَدِ ، فهو مستعذب عند أربابه ، مستحسَن عند أصحابه ، حُلْو لا تعْدِله حلاوة ، ومُرّ لا تعدله مرارة ، وهكذا يراه الكميت بن زيد فيقول :

الحُبّ فيه حلاوةٌ ومَرارةٌ ... سائِلْ من تَطَاعَمَ أو ذُقِ
ماذاق بؤسَ مَعيشةٍ ونعيمَها ... فيما مَضَى أحدٌ إذا لَم يَعْشَقِ

ولأحمد بن يحيى ثعلب رأى

إنه رأىُ خبير يُخبر به من ليس يعرف الحب فيقول :

سَلْنى عن الحُبّ يامن لَيْس يَعْرفُه ... ما أطيبَ الحُبّ لولا أنّه نَكَدُ
طَعْمَان : حُلْو ومُرٌّ ليس يَعْدِلُه ... فى حَلْق ذائقه مُرٌّ ولا شَهْدُ !

(*) النكد : كل شىء جَرَّ على صاحبه شرا .

(١) الطُّلول ، والأطلال : جمع طلل ، وهو ما بقى شاخصا من آثار الديار ، وكم بكى المحبون على أطلال من كانوا يحبون !

** نظرةُ السابقين إلى العشق **

ويُجيب «الإمام ابن سيرين» عما يدور في نفوسنا عن الحب والعشق من تساؤلات فيقول :

«كانوا لايَرَوْن بالعشق بأسًا فى غير رِيبَةٍ».

** ونظرة الآباء إلى عشق الأبناء ! **

قيل لأحد البَصريين : إن ابنك عشق !

فقال : وما بأسٌ به !

إذا عشق نَظُفَ ، وظَرُفَ ، ولَطُف ألم تسمع قول الشاعر :

ومـا الناسُ إلا العـاشِـقُـون ذَوُو الهَـوَى
ولا خـيـرَ فـيـمن لايُحبُّ ويعـشَقُ ؟!

وقال آخر :

ألـم تَـعْـلَـم - فِـــــداكَ أبِـى وأُمّـى
- بـأن الحُـبَّ مـن شـــــيَمِ الـكـرامِ ؟!

** حقيقةُ العِشْقِ **

ولقد اجتمع عند «يَحيى بن خالد البَرْمَكِى» جماعة من أرباب الكلام ، فسألهم عن «**حقيقة العشق**» ، فتَكلَّم كل واحد منهم بشىء .

وكان «أبو الهُذَيْل بن العّلافَ» في جملتهم ، فقال : أيها الوزير :

العشق يختمُ على النّواظر ، ويَطْبعُ على الأفئدة ، مَرْتَعُه في الأجسام ، ومَشْرَعُه فى الأكباد ، وصاحبه متصرف الظّنون ، مُتَفَنِّنُ الأوهام ، لايصفو له مرجوّ ، ولا يسلم له مَدْعُوّ!

تُسْرِع إليه النوائب ، وهو جَرْعَة من نقيع الموت ، ونَقْعَةٌ من حياض الثُّكْل ! .

غير أنه من أرْيَحِيَّةٍ تكون في الطبّع ، وحلاوةٍ تُوجد فى الشمائل ، وصاحبُه جَوَادٌ لايصغى إلى داعية المنع ، ولا يُصيخُ لنازع العَزْل .

** وللطرف الثانى رأى **

وها هى ذى أعرابية أحبت ، وتصف لنا العشق فتقول :

خَفِىَ عَنْ أَنْ يُرَى ، وجَلّ عن أن يَخْفَى ، فهو كامن كُمونَ النارِ فى الحجر !

إن قدحتَه أوْرَى ، وإن تركته تَوارى ، وإن لم يكن» شُعبةٌ من الجنُون ، فهو عُصارة السِّحر !

فما رأيك ؟ وما أكثرَ الآراءَ !! فتعال نتابع مُخْتَلِفَ الآراء لنحكم لها أو عليها !

** رأى فى الحب لعالم صالح **

مما كان يُنْشِدُه لبعضهم «أبو المعالى مسعود بن محمد» الملقب «قطب الدين» ، وكان عالما صالحا :

يقولون : إن الحُبَّ كالنارِ فى الحَشَا

أَلاَ كَذَبُوا ؛ فالنارُ تذكو [1] وتخْمُد

وما هو إلا جَذْوَةٌ مَسَّ عُودَها

ندًى ؛ فهى لا تخبو ، ولا تتوقّدُ !

** هل يَذْبُلُ عُشْبُ الأشواق؟ **

والشاعر المشهور «أبو جعفر البياضى» له ديوان شعر صغير فى غاية الحسن والرقة جاء فيه :

كيف يَذْوِى عُشْبُ أشوا ... قى ولى طَرْفٌ [2] مطيرْ ؟!

إن يكنْ فى العِشْق حُرٌّ ... فأنا العبدُ الأسيرْ

أو على الحُسْنِ زكاةٌ ... فأنا ذاك الفقيرْ !

---

(١) تذكو : تتوقد وتزداد اشتعالا . (٢) الطرف المطير : العين الباكية السَّحاحة .

** السبب فى الحب : العين أم القلب ؟! **

ونَحَارُ كثيرا فى تحديد المسئولية ، والمسئول عن الحب ؛ أهو القلب أم العين ؟

«وأبو على محمد بن المستنير» المعروف بقُطْرُب النحوى كان معلم أولاد «أبى دُلف العِجْلِى» ، وروى له «ابن المنجم» فى كتاب «البارع» بيتين لطيفين فيهما الإجابة ، وهما :

إن كُنتَ لستَ معى فالذكرُ منك مَعِى
يراك قلبى إذا ما غِبْتَ عن بَصرى

والعينُ تُبصِر مَن تهوى وتَفْقِدُه
وباطنُ القلب لايخلو من النظر !

ويدور بين العين والقلب حوار يحمل اتهام كل منهما لغيره ، وإيقاع المسئولية عليه ، ومن عجب أن الكبد تَفْصِل بينهما في ذاك الحوار ، فتعال إلى هذا الحوار الممتع .

** حوار بين العين والقلب! **

من طرائف المحبين ذلك الحوار بين القلب والعين .

القلب : يعتب على العين أنها جَرَّت عليه الويل !

والعينُ : تَعْتِب عليه أنه هو الذى دفعها إلى النظر بما أمَّلَ وطمع !

فماذا قالا ؟ وماذا قالت لهما «الكبد» بعد أن تقطعت ؟!

يقول قلبى لطَرْفى [1] إذْ بكى جزَعَا
تبكى وأنت الذى حَمَّلْتنى الوجَعَا

حتى إذا ما خَلا كلٌّ بِصَاحِبِه
كِلاَهُما بطويل السُّقم قد قَنِعَا

نادتهما كَبِدى لا تَتْعبَا فلَقَدْ
قَطَّعْتُمَانى بما لاقيتما قِطَعَا

ويجرنا هذا الحوار إلى معرفة المزيد عن العين .

(١) الطرف : العين .

** وآه مِنَ العُيُون!! **

لعل أجملَ الأحياء الإنسان !

ولعل أجملَ ما فيه عيناه !

وكما يقول الدكتور «أحمد أمين» رحمة الله عليه! :

إذا كان لكل شيءٍ خُلاصة ، فخلاصةُ الإنسان عينهُ ، هى مستودَعُ سِرِّه ، وهى النافذة التى يُطِلّ منها غيره على ما فى أعماق نفسه ، وهى التّرجمان الذى يعبر أصدق تعبير عما يجول فى نفسه من عواطف ؛ تَعِد ، وتُوعِد ، وترَغّب ، وترهّب !

ومن الطرائف تشبيهات العين ؛ فمنهم من شبهها بالسهم وشَبَّهَ فعلها بفِعله .

* ومنهم من يشبهها بالسيف ، أو بِسنان الرمح !

* ومنهم من يشبهها بالنّرجس لما فيها من الفتور الذى يسمونه المرض ، وهو مرض خير من ألف صحة ؛ كما قال ابن المعتز :

وَسْنَانُ [1] قد خَدَعَ النُّعَاسُ جُفُونَه
فحكى بمُقْلَتِهِ ذُبولَ النَّرجِسِ

ويقول ابنُ عَبّاد :

ونَظَرْنَ من خَلَلِ [2] السُّتورِ بأعينٍ
مَرْضى يخُالطُها السّقامُ صِحَاحِ !

ومن المحبين من كان يُكثر من زرع «النرجس» فى حديقته حبا فى العيون لأنه سمع قول ابن الرومى :

---

(١) الوسنان : مَن أخذ فى النوم . (٢) من خَلل الستور : من خلالها ، ومن بينها ، ومن ورائها .

مـا يفـعلُ السـحـرُ بالألبـاب فى سَنَةٍ

فى الحـالِ تفـعلُه الأحـداق [1] والطُّرَرُ

* ومنهم من كانت تُحَيِّيه نظرة ، وتُميتُه نظرة فيقول :

الوجـهُ منكِ - عن الصَّـوابِ - يُضِلُّنى

وإذا ضَلَلْتُ فـإنه يَهـدينى!

وتُمـيـتُنى الألحـاظُ منكِ بنظرة

وإذا أردت ، بـنظـرةٍ تُحْـيِـينِى

* ومنهم من اعترته حالة غريبة ، فكان يغار من عينيه أن تتمتعا وحدهما بالنظر إلى المحبوب ، فمنعهما النظر ، وفى ذلك يقول :

إنـى لأَحْـسُـدُ نـاظرىّ عَلَيْكا

حـتـى أغُضَّ إذا نـظـرتُ إلَيْكا

ومنهم من كان يَرْبأ أن ينظر بعينيه إلى عين من يحب ، لأنه لايستحق هذا الشرف !

قيل لبعضهم : أتحب أن ترى عينى محبوبك ؟

قال : لا .

قيل : ولم ؟

قال : أُنَزِّه عينيه عن عيون مثلى !

ولقد وضع العرب بيانا لما يستحسن فى العين من الصفات ، وسموا كل نوع من الجمال باسم :

فالعين الظمياء : جَمالها فى رقة جفنيها !

والعين النّجلاء : جمالها فى سَعتها !

والعين الحَوْراء : جمالها فى شدةِ سوادها ، وشدة بياضها .

(١) الأحداق : جمع حدقة ، والطُّرَر : جمع طُرّة ، وهى القُصّة : ما تُطرّه المرأة من الشعر الموفى على جبهتها ، وتصفّفه .

والعين الدعجاء : جمالها فى لونها وسعتها مَعًا !

والسُّقم غير محبب إلا فى العَيْنَيْن !

وسُقم العينين هو ذلك الفتور المحبب إلى المحبين فكثيرا ما يتحدثون عن «مرض العيون!»

ويقول المتنبى :

أعارنى سُقْمَ عينيه وحمّلنى
من الهوى ثِقْلَ ما تَحْوِى مآزرُهُ

ويقول ابن المعتز :

ضعيفةٌ أجفانُه والقلبُ منه حَجَرُ
كأنما الحاظُه من فِعْلِه تَعْتَذِرُ

ويقول آخر :

وأسقَمَنِى حتى كأنى جُفُونٌ
وأثقلنى حتى كأنى رَوَادفُ [1]

ويقول منصور بن الفرَج :

حلّ فى جسمِىَ ماكا ن بَعيْنَيْكِ مقيما

ومثلُه للبحترى :

وكأن فى جِسْمى الذى
فى ناظريك من السَّقَم

فتعال بعد هذه الجولة إلى الذين عَشِقَتْ عيونهم ، ورقت قلوبهم من أول نظرة!! .. تعال إلى أشهر العشاق والمتيمين .

---

(١) الروادف والأرداف : جمع رِدْف ؛ مؤخر كل شىء ، والعَجُز (بضم الجيم) ، والكَفَل (بفتح الكاف والفاء) .

الباب الأوّل

مَشَاهيرُ العُشّاق ومعشوقاتهنّ !

وما الناسُ إلا العَاشِقُون ذَوُو الهَوَى
ولا خيرَ فيمن لايُحِبّ ويَعْشَقُ !

* تعيش في هذا الباب مع العشاق الآتية أسماؤهم

١-ابن رهيمة وزينب.
٢- ابن زيدون وولادة.
٣-أبو العتاهية وعتبة .
٤-أبو نواس وجنان.
٥- الأحوص وأم جعفر.
٦- توبة وليلي الأخيلية.
٧- بشار وعَبدَة.
٨-جميل وبثينة .
٩-ذو الرُّمة وميّ.
١٠-عباس بن الأحنف وفوز.
١١-عبد الله بن علقمة وحُبَيْشَة.
١٢-عبد الله بن قيس ورقية.
١٣-عروة بن حزام وعفراء.
١٤-عنتر وعبلة.
١٥-قيس بن الملوح وليلي.
١٦- قيس بن ذريح ولبنى.
١٧-كثيِّر وعزة .
١٨-مزاحم وليلي.
١٩-نُصَيْب وزينب.

١ - ابنُ رُهَيْمة وزَيْنَب

ابن رُهَيمة من شعراء الغزل العفيف وإن كان أقلَّ زملائه حظا من اهتمام الرُّواة ومؤرخى الأدب ؛

فكل ما ذكر عنه «أبو الفرج» ؛ أنه كان يُشَبِّبُ بزينب بنت عِكرمة بن عبد الرحمن فشاع أمرُه ، وفشا سرّه ، فاستعدى عليه أخوها هشام بن عبد الملك ، فأمر بضربه خمسمائه سوط وأن يُباحَ دَمُهُ إن وُجدَ قَدْ عاد لذكرها ، فهرب ، ولَمّا ولى الوليد عاد ، وقال ابن رهيمة :

إن كُنْتَ اطَّرَدْتَنِى ظالما ... لقد كشَفَ اللهُ ما أرْهبُ
ولونِلْتَ منىَ ما تَشْتَهى ... لَقَلّ إذا رَضِيَتْ زينبُ
وما شئت فاصْنَعْه بى بعد ذا ... فحُبِّى لزينبَ لا يذهبُ

* والظاهر أن قلبَه لم يَعْرِفِ الهوى إلا وهو كبير حيث يقول :

أقْصَدَت زينبُ قلبى بعدما
ذهبَ الباطِلُ عنى والغَزَلْ [1]

وعَلاَ المفرقَ شَيْبٌ شَامِلٌ
واضحٌ فى الرأسِ مِنّى واشْتَعَلْ

* وكان ابن رهيمة صريحا وصادقًا فى حبه . فنراه يقول :

إنما زينبُ هَمّى ... بأبى تلك وأمّى [2]
بأبى زينبُ لا أكَـ ... ـنّى ، ولكنّى أُسَمّى
بأبى زينبُ مِن قَـ ... ـضِ قضَى عمداً بظُلْمِى
بأبى من ليس لى فى ... قلبه قيراطُ رُحْمِ

* ويبدو أن قصة الحب هذه كانت من جانب واحد هو جانبه ، قال :

أقْصَدَتْ زينبُ قلبى ... وسَبَتْ عَقْلِى ولُبّى

---

(١) أقصده : أصابه فلم يخطئه . (٢) بأبى تلك وامى : افديها بهما .

تركَتْنِى مُسْتَهامًا أَستغيثُ اللهَ ربى
ليس لى ذنبٌ إليها فتُجازِينى بذَنْبى
ولها عندى ذُنوبٌ فى تَنائيها [1] وقُربى !!

* وقد أكد «ابن رُهيمة» فى إحدى مقطوعاته حبه الطاهر العفيف كما أكد طهر «زينب» وعفافها أيضا فيقول :

يا زينبُ الحسناءُ يازينبُ يا أكرمَ الناسِ إذا تُنْسَبُ
تَقيكِ نَفْسِى حادثاتِ الرَّدَى والأمُّ تَفْديك مَعًا والأَبُ
هل لك فى وُدِّ امرئ صادقٍ لا يمذُق الوُدّ ولا يكذبُ [2]
لا يبتغى فى وُدّه مَحْرمًا هيهاتَ منكِ العَملُ الأرْيَبُ

* ويؤكد حُبه لها وشدةَ وجده بها فيقول :

فليتَ الذى يَلْحَى على زيْنَبَ المُنَى
تَعَلُّقُهُ مِمَّا لَقِيتُ عَشيرُ [3]
فَحسْبى له بالعُشْرِ مِمَّا لَقِيتُه
وذلك فيما قد تراهُ يَسيرا!!

(١) تنائيها : تباعدها .
(٢) مذَقَ الوُد : أى لم يخلصه من باب نصر ، فهو مذّاق ومماذق ، أى غير مخلص .
(٣) عشير : عُشر ، وهو جزء من عشرة أجزاء مما يلاقيه ، وهو يدعو على من يلحاه ويلومه أن يطاله جزء من عشرة مما يلاقيه !

٢- ابن زيدون وولادة

كان ابن زيدون من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ، وبرع أدبه ، وجادَ شعره وعلا شأنه ، وانطلق لسانه ، ثم انتقل من «قرطبة» إلى المعتضد صاحب «أشبيلية» فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فجعله من خواصه ، يجالسه فى خلواته ، ويركن إلى إشارته ، وكان معه في صورة وزير .

وكانت ولادة - بنت المستكفي - تحظى بغير قليل من الحرية .

شأنها شأن المرأة الأندلسية مما هيأ لها أن تعقد الندوات فى دارها .

وأتاح لها ذلك أن يتعلق بها بعض الشعراء فقد كانت تمتاز بقلب ذكى ، ولسان عذب فصيح ، كما كانت جميلة خلابة . وابن زيدون بلا ريب - هو أهم من أحبها حبا جامحًا ملك عليه مشاعره وعواطفه ، وقد بادلته حبا بحب ، وسعدا بهذا الحب حينا من الدهر ، ثم أخذت تجفوه و مازالت ممعنةً فى جفوتها له حتى ذاق مرارة اليأس والحرمان إلى الأبد . إن قصة الحب العنيف بين ابن زيدون وولادة بنت المستكفى هى قصة لم تروها أرض الأندلس وسماؤها فحسب ، ولكن روتها كل أرض عربية وشعره فيها يمثل هذه المراحل المتفاوتة

* مرحلة يصور فيها نعيمه بالحب .
* ومرحلة يصور فيها شقاءه بناره المحرقة .
* ومرحلة يصور فيها يأسه وبؤسه !!

✍ لقاء ووداع

* والتقيا ، ثم كان وداع ، وفيه يقول :

ودّعَ الصبْرَ محبٌّ ودّعك
حافظ من سِرّه ما استودعك
يَقْرَعُ السِّنّ على أن لَم يكنْ
زادَ فى تِلْكَ الخُطَا إذْ شَيَّعك

يا أخـــا البـــدر سَناءً وسَنَى [1]

رحمَ اللـه زمـــانًا أطلعك

قصيدته النونية:

وهى من أروع قصائده فى مرحلة الجفوة والتنائى بعد التدانى وفيها يقول :

أضحى التَّنَائى بديلاً من تَدانينا

وناب عن طيبِ لُقيانا تَجافينا [2]

بِنتُم وبِنَّا فـمـا ابْتَلّتْ جـوانحنا

شـوقًا إليكم ، ولا جَـفَّتْ مـآقِينا [3]

نكادُ حين تُناجـيكُم ضـمـائرُنا

يَقْضِى علينَا الأسَى لولا تَأسِّينا [4]

حـالت لفـقـدِكمُ أيامُنَا فـغَـدَتْ

سُودًا ، وكانت بكم بيضًا لياليا [5]

ليُسْقَ عهدُكم عَهْدُ السُرور فَمَا

كُنْتُمْ لأرواحِنَا إلا رياحِـــينَا [6]

ويانَسيمَ الصَّبَا بلِّغ تحـيـتَنا

مَن لَو على البُعد حَيَّا كان يُحْيينا [7]

عليكِ مِنّى سلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ

صبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخْفينَا [8]

وهى كما نرى تحمل تباريحَ حب ابن زيدون وما كان يغصّ به من الهجر والتنائى ، وإنها لأنفاس محب مهجور تحولت شعرا .

---

(١) السناء : بالهمزة (ممدودًا) العلو والارتفاع .
والسنا : (مقصورًا - غير ممدود) ضوء القمر ، والضوء الساطع .
وفى القرآن الكريم : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [النور : ٤٣] .

(٢) التدانى ، وطيب اللقياعكس التَنائى والتجافى والتباعد .

(٣) بنتم : بعدتم وبِنّا : بعدنا . وعدم ابتلال الجوانح وعدم جفاف المآقى (العيون) كناية عن اشتعال نار الحب والبكاء لبُعد المحبوب .

(٤) التأسّى : التسلى ، والتعزى ، والتصبّر . (٥) حالت : تحولت وتغيرت .

(٦) ليُسْقَ : دُعاءٌ بالسُّقيا على عادة العرب فالماء أغلى ما كان يتمناه العربى .

(٧) الصَّبا : ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار ، وهى ريح لطيفة يقال : إنها تحمل أنفاس المحبين .

(٨) الصبابة : الشوق أو رقته وحرارته .

** عود إلى ولاّدة محبوبة ابن زيدون ! **

هى من أشهر أديبات الأندلس بل أبرزهن جميعا في تاريخ الأدب العربى علَمُ قرطبةَ المنير ، وشاعرتها الفاتنة ، وسيدة منتداها الأدبى !

تنسب ولادة إلى عبد الرحمن الداخل صقر قريش ومؤسس دولة الأمويين فى الأندلس ، فهى كريمة النسب ، تليدة المواهب ، لكن أباها «محمد بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بالمستكفى بالله» كان مشهورا بالجهل والكسل لاوزن له !

والرواة لايذكرون لها سنة ميلاد ، وإنما يذكرون أنها كانت من المعَمِّرات ، وأنها جاوزت الثمانين أو التسعين .

وقد وصفها ابن زيدون بالجبار العزيز العنيد فقال :

أَهِيمُ بجبّارٍ يَعِزّ وأَخْضَعُ ... شذا المسك من أردانه يتَضَوَّعُ [1]

إذا جئتُ أشكوهُ الجَوَى ليس يَسْمَعُ ... فما أنا فى شَيْءٍ من الوصل أَطْمعُ [2]

ولا أن يَزُورَ المُقْلَتَيْنِ مَنَامُ [3]

لقد أحبت «ذا الوزارتين» الشاعر الخالد ابن زيدون فى صدر حياتها برضائها واختيارها ، كما هجرته من بعد وأصرت على هجره إصرارًا ، وسَعت بنفسها إلى وزير آخر صاحب نفوذ ؛ وإن لم يكن صاحب شعر كابن زيدون !

إنه الوزير «ابن عبدوس» ، لقد أحاطته بحبها إلى آخر أيام حياتها !

لكن الذى خلد ولادة على الزمان لم يكن بهاؤها ، ولا أدبها وإنما خلدها «شعر ابن زيدون» ، وهو المبكر لها فى صدر حياتها وأخباره الطوال والقصار عن ولاّدة ، وقصائده ، ومقطوعاته الشعرية فى هواها .

---

(١) من معانى الجبار : القاهر العاتى المتسلط ، ويقال : قلب جبار : لا تدخله الرحمة ، ولا يقبل الموعظة .
والشذا : الرائحة الطيبة . والأردان الأكمام ، ويتضوع يفوح فلا يشم منها إلا أطيب ريح .

(٢) الجوى : شدة الوجد بسبب عشقه وهجرها .

(٣) المقلتان : يراد بهما العينان .

ومع هذا فقد قاد موقف ابن زيدون من ولادة ومحبوبها ابن عبدوس إلى أن يحاكم بتهمة التآمر على السلطان ، وأن يسجن ، وبعث من السجن بـ «رسالته الجدية» أملاً فى أن يُطلقَ سراحه ، وإلى ولادة «برسالته الهزلية» في ذم «ابن عبدوس» لعلها تطلعه على ماجاء فيها !

وحاول أن يخطب ودها بعد أن فر من السجن ، وبعد أن تولى الوزارة لكنها ازدادت من ابن عبدوس قربا ومنه بعدًا .

وهكذا كانت حياة ولادة فتنة فى الجمال ، وبراعة فى الشعر وقصةً من أقاصيص الهوى والغرام ! وبقيت على الزمان رسالة ابن زيدون «الجدية» «ورسالته الهزلية» من روائع الأدب !

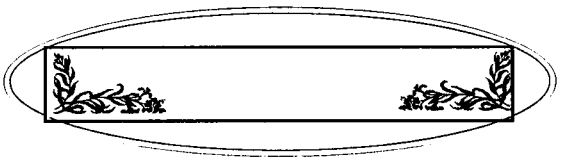

٣- أبو العتاهية وعُتبة

كانت « عُتبة» هذه جارية للإمام المهدى فقال فيها :

عُـتْبَ مـا لِلْخـيـالِ خَـبِّـرينى ؛ ومـا لى ؟
لا أَراهُ أتـــانـــى زائرًا مُـــذْ لـيـالى
لـو رآنـى صـــديـقـى رقّ لـى ، أو رَثَـى لـى
أو يَـرَانـى عَـــدُوّى لانَ من سُـوءِ حـالى

* ويبسط كفّه سائلاً منتظرًا الرّد ؛ فيقول :

بَسَطْتُ كـفّى نحـوكم سـائلاً
مـاذا تَرُدُّونَ على السـائلِ ؟
إن لّم تُنِيلُوهُ ، فـقـولوا له
قـولا جـمـيـلاً بَدَلَ النّائِلِ[1]
أو كنتمُ العـامَ على عُـسْـرةٍ
ويْلـى ! فَـمَنُّوهُ إلى قـابلِ !

وأبو العتاهية هو إسماعيل بن القاسم العنزى ، ولدبعين التمر بالحجاز قرب المدينة ، وقيل : إنها من أعمال سقى الفرات ، وقال ياقوت : إنها قرب الأنبار .

ونشأ بالكوفة ، وسكن بغداد ، وكان يبيع الجرار ، فقيل له : الجرّار ، واشتهر بمحبة «عُتْبَة» وأكثرُ نَسِيبه فيها ، ولكنها كانت تُذيقه من ألوان القطيعة والهجر والصد ماكان يُفْقده عقله ؛ حتى أطلقوا عليه «أبا العتاهية» .

ولما يئس تزهد ، ولم يعد يقول الشعر إلا فى الزهد ، وله فى الزهد أشعار كثيرة تهُز القلوب ، وتُبكى العيون ! .

وكانت ولادته فى سنة ثلاثين ومئة كما قال ابن خلكان وتوفى يوم الإثنين سنة ثلاث عشرة ومئتين ببغداد .

ولما حضرته الوفاة طلب أن يُنْشَد عند رأسه :

(١) النائل : العطاء .

إذا مـــا انقـــضت عنّى من الدهر مُـدّتى

فـــإن عَـــزاءَ البـــاكـــيـــاتِ قليلُ

سَـيُـعْـــرَضُ عن ذكـــرى وتُنْسَى مَـوَدّتى

ويَحْـــدُثُ بعْـــدى للخليلِ خليلُ

ثم قال

إن عـــيـــشًـــا يكون آخـــرَه المو تُ لعـيشٌ مُـعَـجّل التَّنْغِـيصِ

✍ عَوْد على بدء

* وكان قد شكا إلى عُتبة فى بداية حبه لها ما يلقاه من عذاب هجرها فقال :

أعْلَمْتُ عُـــتْـــبَـــةَ أننى منهـــا على شَـــرَفٍ مُطِلّ

وشكوتُ مَـــــا أَلْقَى إليـ ـهـــا ، والمدامعُ تَسْـتَـــهِلّ

حـــــتى إذا بَرِمَتْ بِمَـــــا أشكو كـمـا يشكو الأقلّ (١)

قـــالت : فـــأى النّاس يَعْـ ـلَم مـا تقـول ؟ فـقلت : كُلّ

* وكتب مرة إلى المهدى ، وعرّض بطلبها ، لعله يمن عليه بها فقال :

نفـــسى بشىءٍ من الدنيـــا مُـــعَلَّقَـــةٌ

اللّـهُ ، والقـــائمُ المهـــدى يكفـــيـــهـــا

إنى لأيـأس مـنهـــــا ثـم يُطْمِـــــعُنى

فـيـهـا احـتـقـارِكَ للدنيـا ومـا فـيـهـا !

ويقال : إنه لما هم بدفع عتبة إليه جَزِعَتْ ، وقالت :

ياأمير المؤمنين ؛ حُرْمَتِى وخِدْمَتى !

أتدفـعنى إلى رجل قـبـيح المنظر ، بائع جـرار ، ومـتكسب بالشـعـر ؟! فأعفاها .

(١) الأقل : الضعيف ! فالقوى لا يشكو : وشكوى الأقل فيها ضراعة وذلة .

* ومن لطيف شعره قوله :

ولقد صَبَوْتُ إليكِ حَتَّى ... صار من فَرْط التصابى [1]

يجدُ الجليسُ إذا دنا ... ريحَ التصابى فى ثيابى !

* ويشكو لكل من يلقاه لكيلا يلوموه قائلا :

يا إخوتى إن الهوى قاتلِى

فبشروا الأكفانَ من عاجلِ !

ولا تلُوموا فى اتباع الهَوى

فإننى فى شُغُلٍ شاغِلِ

* ويقول فيها :

عَيْنِى على عُتْبةَ مُنْهَلَّةٌ ... بدمعها المنسكب السائِل

يا من رأى قَبْلِى قتيلاً بكى ... من شدة الوجدِ على القاتِلِ

✍ أبو العتاهية وبشار بن برد

وحكى «صاعد اللغوى» فى كتاب «الفصوص» أن أبا العتاهية زار يوما «بشاربنَ بُرد» ، فقال له أبو العتاهية :

إنى لأستحسن قولك اعتذارا من البكاء إذا تقول :

كم من صديقٍ لى أُسا ... رِقُه البُكاءَ من الحَياءِ

وإذا تَفطّن لامَنِى ... فأقولُ : ما بى من بُكاءِ !

لكن ذهبتُ لأرتدى ... فطرفتُ عينى بالرِّدَاءِ

فقال له بشار : أيها الشيخ ؛ ما عرفته إلا من بحرك ، ولا نَحَتَّهُ إلا من قدحك ، وأنت السابق حيث تقول :

وقالوا : قد بَكَيْتَ ؛ فقلت : كَلاَّ

وهل يبكى من الجَزِعِ الجليدُ [2]

---

(١) صبوْت : تشوقت .

(٢) الجليد : الذى بلغ الغاية فى التجلد والتحمل والصبر .

ولكن قد أصاب سوادَ عيني

عُوَيدُ قَذًى به طرفٌ حَديدُ [1]

فقالوا : مَالِدَ مْعِهما سَواءٌ

أكِلْتَا مُقْلَتَيك أصابَ عُودُ ؟!

✍ أبو العتاهية فى سجن الجرائم !

وكان «أبو العتاهية» قد ترك قول الشعر ، فحكى قال :

لما امتنعت من قوله ، أمر المهدى بحبسى فى «سجن الجرائم» فلما دخلته دَهِشْتُ ، ورأيت منظرا هالنى ، فطلبت موضعا آوى فيه ؛ فإذا أنا بكهل حسن البِزَّة [2] والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصدته ، وجلست من غير سلام عليه ؛ لما أنا فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكثت كذلك مَليًّا ، وإذا بالرجل يُنْشِد :

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضُّرِّ حتى أَلِفْتُه

واسْلَمنى حُسْنُ العَزاءِ إلى الصَّبر

وصيّرنى يأسِى من الناسِ واثقًا

بحُسْنِ صنيعِ الله من حَيْثُ لاَ أَدْرِى

إذا أنا لم أقْنع من الدّهْرِ بالذى

تكرّهتُ منه طالَ عَتْبِى [3] عَلَى الدَّهْرِ

واستدعى هذا الرجل ، وضُرِبَ عنقه!

كما استُدعِيَ «أبو العتاهية» وهو فى سجنه فقيل له : أتقول الشعر ، أويُضْرَبُ عُنُقُك مثل صاحبك ؟!

فقال : بل أقول الشعر ، فقيل : أطلقوه !

---

(١) عويد : عود صغير . والمقلتان : العينان .

(٢) البِزّة : الهيئة والمنظر . (٣) عَتبى : عتابى ولومى !

✍ آخر شعر قاله

قال محمد بن أبى العتاهية : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه :

إلهى لا تُعذّبنى فإنى ... مُقِرٌّ بالذى قد كان مِنّى

فمالىَ حيلةٌ إلا رجائى ... لعَفْوكَ-إن عَفَوْتَ -وحُسْنُ ظَنّى

وكم من زَلّةٍ لى فى الخطايا ... وأنتَ علىَّ ذُو فضل ومَنِّ

يَظُنُّ الناسُ بى خيرًا وإنى ... لَشرُّ الخلق ، إن لم تعفُ عَنّى !!

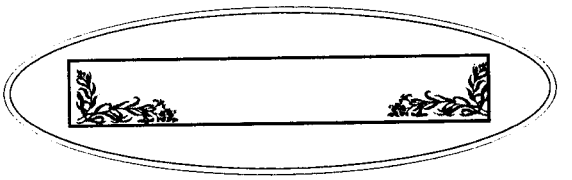

٤ - أبُو نُوَاس وجِنان

(أضواء على الجانب الآخر من حياة أبى نواس)

لأمرٍ مَّا خصص أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه «الأغانى» فى الجزء العشرين فصلا لأبى نُواس ومحبوبته «جنان» جاء فيه :

كانت «جنان» هذه «جارية» آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفِىّ المحدّث .

وكانت حُلوةً جميلة المنظر أديبة !

ويقال : إن أبا نُوَاس وهو أبو على الحسن بن هانئ لم يَصْدُق فى حُبِّه امرأةً «غيرها» من أجل هذا اخترت لك هذه القصة من بين أخبار أبى نُوَاس جميعها ! ؛ تمشيا مع منهجنا فى ألا نُقَدِّم من الغزل إلا ماكان عفيفا! قالوا :

كانت «جِنَانُ» جاريةً حسناء أديبةً عاقلةً ظريفةً تعرف الأخبار ، وتروى الأشعار !

وكانت لبعض الثقفيين بالبصرة ، فرآها أبو نُواس فاستحلاها ، وقال فيها أشعارًا كثيرة !

وكان أول ما قاله من الشعر وهو صبى :

حـــاملُ الهَـــوَى تَعِبُ ... يستـــخفّـــه الطّرَبُ
إن بـكـى يَـحـقّ لَـهُ ... لـيسَ مـــا بِه لَعِبُ
تضـــحكين لاهيـــةً ... والمُحبُّ ينتـــحبُ
تعـجـبين من سَـقَـمى ... صِحَّتِى هى العَجبُ !

وذات يوم قال له أحد أصحابه :

إن «جنَانَ» قد عزمت على الحج ؛ فكان هذا سببَ حجه ! فقال : أما - والله - لاَيَفُوتُنى المسيرُ معها ، والحج هذا العام إن أقامت على عزيمتها !

ويواصل صاحبه الحديثَ عنه فيقول :

فظَنَنْتُه عابثاً مازحاً ، فسبقها - والله - إلى الخروج بعد أن علمَ أنها خارجة ، وما كان نوى الحج ، ولا أحدث عزمَه له إلا خروجُها ! وقال : وقد

حج وعاد :

أَلَم تَرَ أَنَّنى أفْنَيْتُ عُمْرِى
بمَطْلَبِها ، ومَطْلبُها عَسِيرُ ؟
فلَمّا لم أجِد سببًا إليها
يُقَرِّبُنى ، وأعْيَتْنى الأمورُ
حَجَجْتُ ، وقلت : قد حَجّتْ جِنَانٌ
فيَجْمَعُنى وإياها المسيرُ

قال صاحبه :

فحدثنى مَن شَهِده لما حَجّ مع جنان ، وقد أحرم فلما جَنّه الليل جعل يُلَبِّى وهو قوله :

إلهَنَا ما أعَدلكْ ! مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكْ
لَبَّيْكَ قَدْ لَبَّيْتُ لكْ لَبَّيْك إنّ الحمدَ لَكْ
والمُلْكَ لا شريكَ لكْ واللّيلَ لَمّا أنْ حَلَكْ
والسابحاتِ فى الفَلَكْ على مَجَارِى المُنْسَلَكْ
ما خَابَ عَبْدٌ أمَّلَك أنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكْ
لَوْلاكَ يارَبِّ هَلَكْ كُلُّ نَبِىٍّ ومَلَكْ
وكُلُّ مَنْ أهَلّ لَكْ سَبّحَ أو لَبَّى فَلَكْ
يا مُخْطِئًا ما أغْفَلَكْ عَجِّلْ وبادِرْ أجَلَكَ
واخْتِمْ بخيرٍ عَمَلَكْ لَبَّيْك إن المُلْكَ لك
والحَمْدَ والنعمةَ لَكْ والعِزَّ لا شريكَ لك

ولعلك قد اشتقت إلى أخبار «أبى نواس وجنان» قَبلَ رحلة الحج ، وبعدَه لترى إلى أى حَدٍّ أصاب حبُّها قلبَه فتمكن ، ونعود فنقول :

كانت جنانُ - كما سبق - جاريةً لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وفيها يقول :

جَفْن عَيْنى قد كاد يَسْـ ـقُطُ من طُولِ ما اخْتَلَجْ [1]
وفُؤادِى من حَرّ حُبِّـ ـكِ والهَجْر قَدْ نَضَجْ
خَبِّرِينى - فَدَتْكِ نفْسـ ـى ، وأهْلِى : متى الفَرَجْ ؟!
أَنْتِ من قَتْلِ عائذ بِك فى أضْيَق الحَرَجْ

لم يكن باستطاعته أن يراها إلا عند خروجها ، وذات يوم كانت جنان قد شهدت عُرْسًا فى جوار أبى نُواس فانصرفت منه ، وهو جالس فرآها فأنشد بديهًا قوله :

شَهِدتْ جَلْوَةَ العَرُوسِ جِنَانُ
فاستمالت بحُسْنِها النَّظّارهْ
حَسِبوهَا العَرُوسَ حينَ رَأَوْهَا
فإليْهَا دُونَ العَروسِ الإشاره !
قال أهلُ العَرُوسِ حينَ رَأَوْهَا
مادَهانَا بِهَا سِوَاكِ عُمَارهْ

و«عُمارة» هذه هى زوجُ «عبد الرحمن الثقفى» وهى مولاة جنان .

✍ غضب جنان واعتذار أبى نُواس

ذات يوم غَضِبتْ جِنانُ من كلام كلمها به أبو نواس فأرسل يعتذر إليها، فقالت للرسول :

قل له : «لابَرِحَ الهجرانُ رَبْعَك [2] ، ولابلَغْتَ أَمَلَك مِنْ أَحِبّتِك ». فرجع إليه ، فسأله عن جوابها ، فلم يخبره فقال :

فَدَ يْتُكِ فِيمَ عَتْبُكِ مِنْ كَلاَمِ
نَطَقْتُ به على وجهِ جَميلِ ؟
وقولُكِ لِلرَّسُولِ : عليكَ غَيْرى
فليْس إلى التَّواصُلِ مِنْ سبيلِ

(١) تحرك واضطرب .
(٢) الرّبع : الدار وما حولها والمنزل والحى . وهو دعاء عليه بأن يعيش فى هجر مقيم .

فـقَـدْ جـاءَ الرسـولُ له انكسـارٌ

وحـال مـاعليـهـا من قَـبُـولِ

ولَوْ رَدّتْ جِنَانُ مَـرَدّ خَـيـرِ

تبـيَّن ذاكَ فى وَجْـه الرسـول

قال أبو خالد يزيد بن محمد : وكان أبو نُواس صادقا فى محبته «جنان» من بين مَن كان يَنْسُبُ[1] به من النساء ، ورأيت أصحابنا جميعا يصححون ذاك عنه ، وكان لها محبا ولم تكن تحبه ، فممّا عاتبها به حتى استمالها بصحة حبه لها فصارت تحبه بعد نُبُوِّها[2]عنه قوله :

جِنَانُ إن جُـدْتِ يا مُنايَ بِمـا

آمُلُ لم تَقْطُرِ السّمـاءُ دَمَـا

وإن تَمـادَىْ - ولا تَمَـادَيْتِ فى

مَنْعِك - أُصْبِحْ بقَـفْـرَةٍ رِمَـمَـا[3]

عَـلِـقْتُ مَـنْ لَـوْ أَتَـى عـلـى أنْـفُـس المـ

ـاضينَ والـغـابرين مـا نَدِمَـا

لو نَظَرَتْ عَـيْنُه إلى حَـجـرٍ

وَلَّد فـيـه فُـتُـورُها سَـقَـمَـا

✍ أبو نُواس يسأل عنها امرأةً فتخبره أنها رحمته

حدّث الجمّازُ قال :

كنت عند أبى نُواس جالسا إذ مرت «امرأة» ممن يُداخِلُ الثَّقفيين[4] فسألها عن «جنان» وألحف فى المسألة واستقصى ، فأخبرته خبرها ، وقالت :

قد سمعتُها تقولُ لصاحبةٍ لها - من غير أن تعلم أنى أسمع -: ويحك ! قدآذانى هذا الفتى ، وأَبْرَمَنِى ، وأحرج صدرى وحيثما التفت أراه فى أثرى ، فقد لهج قلبى بذكره ، والفكر فيه من كثرة ذلك حتى رَحِمْتُهُ ، ثم التَفَتَتْ ، فأمسكت عن الكلام ، فَسُرَّ أبو نواس ، فلما قامت المرأة أنشأ يقول:

(١) النسيب : الغزل ، والتشبيب .
(٢) نبوها : بعدها .
(٣) الرمم : جمع رمة ، وهى العظام البالية .
(٤) يختلط بهم .

يـاذا الذى عَنْ جِنـانِ ظَلّ يُخْـبِـرُنا
بـالله قُلْ واعِـدْ ياطيّبَ الخَـبَـرِ

قال: اشْتَكَتْك وقالت : ما ابتُليتُ به
أراه من حَـيْـثُـمـا أقْـبَلْتُ فى أثَرِى !
ويُعْـمِلُ الطَّرْفَ نَحْـوى إن مَـرَرْتُ بِه
حـتى لَيُـخـجِلُنى مِنْ حِـدَّةِ النَّظَرِ [1]
وإن وقـفتُ له كـيـمـا يُكَلّمُنى
فى الموضعِ الخِلْوِ لم يَنْطِقْ من الحَصَرِ
مـازال يَفْـعَلُ بى هَذَا ويُدْمِنُه
حـتى لقـد صَـارَ مِن هَمّى ومِنْ وَطَرِى !

ورآه محمد بن حفص بن عمر و هو يتولى القضاء حين انصرافه من المسجد فى طريقه قد خلا بامرأة يكلمها ، وكانت هذه المرأة قد جاءته برسالة من جنان ، فقال له :

اتق الله [2]!

قال : إنها حُرْمتى !

قال : فصُنْها عن هذا الموضع ، وانصرف عنه !

فقال أبو نُواس :

إنّ الـتـى أبصَـرْتَـهـا بكرًا [3] أُكَلّمُـهَـا رسـولُ
أدّت إلـىّ رِسَـالـةً كـادتْ لَهَـا نَفْـسِى تَسِـيلُ
فَـلَـوَ انّ أُذْنَـكَ بَـيْـنَـنَـا حـتى تَسَـمّع مـا تَقُـولُ
لرأيت مـا اسْـتَـقْـبَـحْتَ مِنْ أَمْـرِى هو الأمـرُ الجـمـيلُ !

(١) أمرنا بغض البصر ، وإعطاء الطريق حقها إن لم يكن بُدٌّ من الجلوس فى الطرقات .
(٢) نهى الإسلام أن يخلو رجل بامرأة ، وأمرنا أن نتقى الشبهات فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .
(٣) بكرا : أى لأول مرة .

ثم وجّه بها ، فألقيت فى الرِّقاع بين يدى القاضى ، فلما رآها ضحك وقال: إن كانت رسولاً فلا بأس !

وفى رواية ، فلما قرأها ضحك وقال : قل له : إنى لا أتعرض للشعراء !

✍ أبو نواس يسأل عنها أخا مولاها

كان «أبو عثمان» أخا مولى جنان ، وكان مولاها «أبو مية» زوجُ عُمارة ، وهى مولاتها ، كانت لهما بحَكَمَان [1] ضيعة كان ينزلها هو وابن عم له يقال له : أبومَيّة ، فقال أبو نواس :

أسألُ القادمينَ من حكَمَانِ [1]
كيفَ خَلّفتُما أبا عثمانِ ؟!
وأبا مَيّةَ المهذّبَ والما
جدَ والمرتَجَى لرَيْبِ الزّمانِ
فيقولان لى : جِنان كَمَا سَرّ
كَ فى حالِها ، فسَلْ عن جنانِ
مالهم لا يُبارِكُ اللهُ فيهمْ
كيف لم يُغْنِ عنْدَهم كِتْمانى ؟!

ومن الطرائف التى تذكر فى هذا المجال أن أبا نواس أشرف من دار على منزل عبد الوهاب الثقفى ، وقد مات بعض أهله ، وعندهم مأتم ، وجِنان واقفة مع النساء تلطِم وجْهَهَا [2] ، وفى يدها خِضَاب فقال :

ياقمراً أبرزَه مأتَمٌ يندُبُ شجواً بين أترابِ
يَبْكى فيُذْرى الدُّرَّ من عينه ويَلطِم الوَرْدَ بعُنّابِ

---

(١) حكمان : ضيعة بالبصرة لبنى عبد الوهاب موالى جنان ، سميت باسم الحكم بن العاص الثقفى، وهذا اصطلاح لأهل البصرة إذا سَمّوا ضيعة باسم زادوا عليه ألفا ونونا ، وحكَمَان بالتحريك أو هو كسَلْمان .

(٢) نهى الإسلام فيما نهى عن لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا إلى الصبر والرضا بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره !

لا تَبْكِ مَيْتًا حَلَّ فى حُفْرَةٍ وابْكِ قتيلاً لك بالبابِ
أبرزه المأتَمُ لى كارِهًا برَغْمِ دايات وحُجّابِ
لازال موتًا دابُ أحْبابه ولا تزل رؤيتُه دابى [1]

وتمضى الأيام ، وتمر الأعوام ، والبلاغيون لا ينتهى إعجابهم بقوله :

يبكى فيُذرى الدرّ من طَرْفِهِ
ويَلْطِمُ الوردَ بِعُنّابِ

** رسالة إلى جنان من بَغْداد **

كتب أبو نواس إلى جنان من بغداد رسالة يقول فيها :

كَفَى حَزَنًا ألّا أرَى وجهَ حِيلَةٍ
أزورُ بها الأحبابَ فى حَكَمانِ
وأُقْسِمُ لَوْلاَ أنْ تنالَ مَعَاشِرٌ
جِنانًا بما لا أشْتَهى لجِنانِ !
لأصبحتُ منها دانىَ الدارِ لاَصِقًا
ولكنّ ما أخشى - فُدِيتِ - عَدَانى
أرانى انقضَتْ أيامُ وَصْلِىَ منكُمُ
وآذنَ فيكم بالوَداعِ زَمانى !

ومن طرائف هذا الحب أن أبا نواس بلَغهُ ذات يوم أن امرأة ذكرت لجنان عشقه لها ، فشَتَمتْه «جنان» ، وتنقّصتْه ، وذكرته أقبح الذكر : فقال :

وَا بِأَبى مَنْ إذَا ذُكِرْتُ لَهُ وطولُ وجدى به تَنَقَّصَنِى
لو سألوه عن وجه حُجّته فى سَبِّه لى لقال : يَعْشَقُنى
نعم إلى الحشر والتّنادِ نَعَمْ أعْشَقُه ، أو أُلَفّ فى كَفَنِى
أصِيحُ جهرًا لا أسْتَسِرّ به عَنّفَنِى فيه مَن يُعَنِّفنى :
يامعشرَ الناسِ فاسمعوه وَعُوا : أن جِنَانًا حبيبةُ الحَسَنِ

---

(١) دابى : دأبى خففت همزتها .

فبلغها ذلك ، فهجرته ، وأطالت هَجْرَه ، فرآها ليلة فى منامه ، وأنها قد صالحته ، فكتب إليها :

إذا التقى فى النومِ طيفانا ... عاد لنَا الوَصْلُ كما كانَا
يا قُرّة العين فما بالُنا ... نَشْقَى ، ويَلْتَذُّ خَيَالانا ؟!
لو شئتِ إذ أحسنتِ لى فى الكرى ... اتْمَمْتِ إحسانَكِ يقظانا
يا عاشِقَيْنِ اصطلحا فى الكرى ... وأصبحا : غضْبَى وغَضْبانا
كذلك الأحلامُ غدّارةٌ ... وربّما تَصْدُقُ احيانا

وهكذا أمتعنا أبو الفرج الأصبهانى بهذا الحب الصادق من حياة أبى نواس!

وروى أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأله عن نسبه فقال : أغنانى أدبى عن نسبى ، فأمسك عنه .

وهو فى الطبقة الأولى ، وشعره عشرة أنواع ، وهو مجيد فى العشرة .

✍ أبو نُواس والأمين والمأمون:

كان محمد الأمين قد سخط عليه ، وحبسه ، فكتب إليه من السجن :

بِكَ استجيرُ مِنَ الرّدَى ... مُستَعَوِّذاً مِن سَطْوِ باسِكْ
وحياةِ رَأسِك لا اعـ ... ـدُ لمثلها ؛ وحياةِ رَاسِك
مَنْ ذَا يكون ابا نُوَا ... سِكَ ، إن قَتَلْتَ ابا نُواسِكْ

ويقول ابن خلكان : ورأيت فى بعض الكتب أن المأمون كان يقول :

لو وَصَفَتْ الدنيا نفسَها ، لما وُصفَت بمثل قول أبى نُواس :

الا كُلُّ حَىٍّ هَالِكٌ وابنُ هالكِ
وذُو نَسَبٍ فى الهالكين عريق [1] !!
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكَشَّفَتْ
له عن عَدوٍّ فى ثياب صَديق

(١) فسلسلة نسبه حتى آدم كلهم ماتوا وهلكوا .

٥- الأحوص وأم جعفر

الأحوص : هو عبد الله بن محمد ، شاعر المدينة في عصر بنى أمية ؛ وهو ثالث ثلاثة نهضوا بالغزل فى الحجاز نهضةً واسعة فى ذاك العصر .

وشعره حلوُ اللفظ متينُه ، قويُّ الأسلوب رصينُه ، يُجَوِّدُ فى المعنى كما يجود فى اللفظ !

«وأم جعفر» هذه امرأةٌ من الأنصار هى أم جعفر بنت عبد الله ، وله فيها أشعار كثيرة !

ولما أكثر الأحوص التشبيب بها ، وشاع ذكره فيها توعده أخوها «أيمن» ، وهدده فلم ينته ! فاستعدى عليه «عمر بن عبد العزيز» ، فر بطهما فى حبل ، ودفع إليهما سوطين ، وقال لهما تجالدا [1] ، فتجالدا ، فغلبه أخوها ، وهرب الأحوص ، فتبعه أخوها حتى فاته «الأحوص» هَرباً ، وكان الأحوص قد : قال فيها :

لقد مَنَعَتْ مَعْرُوفَها أمُّ جعفر
وإنى إلى معروفها لَفَقِيرُ
أَدُورُ ولولا أن أرى أم جعفرٍ
بأبياتِكم ما دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
أزورُ البُيُوتَ اللاصقاتِ بِبِيْتِها
وقلبى إلى البيت الذى لا أزورُ
وما كنتُ زَوّاراً ولكنّ ذَا الهوى
إذا لَمْ يَزُرْ لابُد أَنْ سَيَزُورُ
أزورُ على أن لَسْتُ أنفكّ كُلّمَا
أتيتُ عَدُوّاً بالبنَانِ يُشِيرُ

ويقول :

أَبُثُّكِ ما أَلْقَى وفى النفسِ حاجةٌ
لها بين جِسمى والعظامِ دبيبُ

---

(١) ليجلد كل منكما الآخر .

لكِ اللهُ إنىَ واصلٌ مـــا وَصَلتِنى

ومُـــثْنٍ بما أوْلَيْـــتنى ومُـــثيبُ

وإنى لآتى البيت مـا إن أُحِبّـه

وأُكْـثِـرُ هجـرَ البـيت وهو حـبـيبُ

وأُغْضِى على أشياءَ منكمْ تسوءُنى

وأُدْعَى إلى مـــا سَـــركُم فـــأجِـــيبُ

وآخـذُ مـــا أعطيت عـــفـــوًا وإننى

لأزوَرّ عـــمـــا تكرهين هَيُـــوبُ (١)

فـلا تتـركى نفـسى شَـعَـاعًـا فـإنهـا

من الحـــزن قـد كـادت عليك تذوبُ (٢)

ويعيش على الأمل فيقول :

إنـى لآمـلُ أن تـدنـو وإن بَـعُـــــدت

والشَّىْءُ يُؤمَل أن يَدْنُو وإن بَـعُـــدَا

ويحدثنا عن معالجة الحب فيقول :

ماعـالج النـاسُ مـثلَ الحُبِّ من سَـقَمٍ

ولا بَـرَى مـــثلُه عظمًـا ولا جَـسَـدَا

مـــا يلبثُ الحُبُّ أن تبـدو شـواهدُهُ

مِـنَ المحـبِّ ، وإن لَـم يُبْـــــدِهِ أبَـدَا

وينسى ذنب «أيمن» من أجل أخته «أم جعفر» فيقول :

إذا أنـالم أغـفِـــرْ لأيمـنَ ذَنبَـــه

فـمـن ذا الذى يعـفـو له ذنبَـه بعـدى ؟!

أريدُ انتـــقـــام الذنبِ ثم تَرُدُّنى

يَدٌ لأَدانيـــــهِ مـــبـــاركـــةٌ عندى

إذا جئتُ قـالوا : قـد أتى وتهـامسـوا

كـأن لَـم يجـد فـيـمـا مـضى أحـد وَجْـدِى

(١) أزوَرّ عنه : أميل عنه ، وأهابه ولا أقبل عليه .

(٢) شَعاعا (بفتح الشين) : مفرقة موزعة .

فـعـروةُ سَنّ الحُبّ قـبلىَ إذ شَـقَى

بعـفـراءَ ، والنّهْـدِىُّ مـات على هِنْدِ

لا تزرنا :

ويتساءل عمن حَرَّضَها، وجعلها تقول له : لا تَزُرْنا ، فيقول :

أرسلت أم جـعـفـر : لا تَزُرْنا

ليتَ شِـعـرى بالغـيبِ من ذَا دَهاها ؟!

أتاها مُـحَـرِّشٌ بَنَمِـيمٍ

كـاذبٌ ، مـا أراد إلا رَدَاهَا[1] ؟!

✍ أنْسَبُ بيت قالته العرب !

قال أبو الفرج : أخبر الحرمى عن عبد الأعلى قال : حُمِّلْت دَيْنًا وكنت فى ركب المهدى وأنا وراءه فى موكبه على برذون قَطُوفٍ[2] فقال :

ما أنسبُ بيت قالته العرب ؟

فقال أبو عبيدالله : قول امرئ القيس :

ومـا ذَرَفَتْ عَـيْناكِ إلا لِتَـضْـرِبى

بسَهْـمَـيْكِ فى أعْشَـارِ قَلْبٍ مُـفَـتّلِ

فقال : هذا أعرابى قُحّ !

فقال عمر بن بزيغ : قول كُثَيِّر يا أميرَ المؤمنين :

أُرِيُد لأَنْسَى ذكـرَهـا فكأنما

تَمَـثّلُ لى لَيْلَى بكلّ سَـبِـيل

فقال : ما هذا بشىء ، وماله يُرِيدُ أن ينسى ذكرها حتى تمثل له !

فقلت : عندى حاجة ياأمير المؤمنين . جعلنى الله فداك !

قال : الحق بى . قلت : لا لحاق بك ، ليس ذلك فى دابتى .

---

(١) رداها : هلاكها وموتها .

(٢) البرذَوْن : غير العربى من الخيل والبغال . والقطوف (بفتح القاف) سيئ السير ، البطئ .

قـال : احـملوه على دابة . قلت : هذا أول الفـتح ، فـحـملت على دابة ، فلَحِقْتُه ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :

إذا قلتُ : إنى مُـشْـتَـفٍ بلقـائهـا فحُمّ التَّلاقى بيننا زادنى سُقْمَا

فقال : أحسن والله ، اقضوا عنه دينه ، فقضى عنى دينى !

✍ أغزل بيت قالته العرب

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن التساؤل عن «أغزل بيت قالته العرب» كثيرا ما شغل بالَ الكثيرين ! وكان لأئمة اللغة والأدب والنقاد رأيُهم !

هذا ، وقد نقل الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء ؛ أنه قال :

(١)

أغزل بيت قالته العرب ، قول «عُمَرَ بنِ أبى ربيعة :

فـتَـضَـا حَكْنَ ، وقـد قُلْنَ لهـا :

حَـــسَنٌ فى كلِّ عَـــيْن مَنْ تَوَدّ

(٢)

وكان الأصمعىُّ يقول :

أغزل بيت قالته العرب ؛ قول «امرئ القيس» :

ومـا ذَرَفَتْ عـيناكِ إلا لِتَـضْـرِبى

بَسَهْمَيْك ، فى أعشار قلبٍ مُفَتَّلِ

(٣)

وحُكِىَ عن الوليد بن يزيدَ بن عبد الملك أنه قال :

لم تَقُل العربُ بيتًا أغزل من قول «جميل بن مَعْمَر» :

لكُلِّ حـــديثٍ عندَهن بشـــاشَـــةٌ

وكلُّ قـتـيلٍ عِنْدَهُنّ شـهـيـدُ

وفضَّلَتْه بهذا البيت «سُكَيْنَةُ بنتُ الحَسينِ بن عَلِيٍّ رضوان الله عنهم» ، وأثابته به دون جماعة من حضر من الشعراء !

(٤)

وقال الحاتميُّ : أغزلُ ما قالته العرب ؛ قول أبى صخر الهذلىّ :

فيا حُبَّها زِدْنى جوًى كلَّ ليلةٍ
ويا سَلْوةَ الأيّامِ مَوْعِدُك الحَشْرُ

(٥)

وقال أبو عبيدة : ماحفظت شعرًا لمُحدَثٍ إلاقول أبى نُوَاس :

كأن ثيابَه أطْلَعْنَ من أزرارِه قَمَرا
يَزيدُك وجْهُه حُسْنًا إذا ما زِدْتَه نظرَا

فما رأيك فيما قالوه ؟

ونعود إلى «الأحوص وأم جعفر» وما كان من أمرها معه بعد أن ضاقت به ذرعاً !!

✍ أم جعفر تحتال لتبرئة نفسها بعد أن شاع أمرها !

ذكر أبو الفرج الأصبهانى أن «أم جعفر» لما أكثر «الأحوص» فى ذكرها جاءت منتقبة ، فوقفت عليه فى مجلس قومه ، ولا يعرفها ، وكانت امرأةً عفيفةً ، فقالت له : اقض ثمن الغنم التى ابتعتها منِّى ، فقال :

ما ابتعتُ منكِ شيئًا ؛ فأظهرت «كتابا» قد وضعته عليه ، وبكت ، وشكت حاجة ، وضُرًّا ، وفاقةً ، وقالت :

ياقوم ، كلموه ؛ فلامه قومه ، وقالوا : اقضِ المرأة حقها ؛ فجعل يحلف أنه مارآها قط ، ولا يعرفها !

وعندئذ كشفت وجهها ، وقالت : ويْحَك!

فجعل يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها ، واجتمع الناس وكثروا ، وسمعوا

ما دار، وكثر لغطهم وأقوالهم ، وإذا بها تقول : أيها الناس ، اسكتوا ، ثم أقبلت عليه ، وقالت : ياعدوَّ الله ! صدقت ، والله مالى عليك حق ولا تعرفنى ، وقد حلفت على ذلك ، وأنت صادق ، وأنا «أم جعفر» ، وأنت تقول : قلت لأم جعفر ، وقالت لى أم جعفر فى شعرك ؛ فخجل الأحوص ، وبرئت أم جعفر عندهم ؛ وعرفوا أن الشعراء فى كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون كما وصفهم ربنا سبحانه !

✍ لمن هذا الشعر ؟!

وجاء فى العمدة لابن رشيق :

حكى عن «ابن شهاب الزُّهْرِى» قال : دعانى «يزيد بن عبد الملك» ، وقد مَضَى شطر من الليل ، فأتيتُه فزعًا ، وهو على سطح ، فقال لابأس عليك .. اجلس ، فجلست فسمعنا من يُنشد :

إذا رُمْتُ عنها سَلْوة ، قال شافعٌ

من الحُبِّ : ميعادُ السُّلُوِّ المقابرُ !

سيَبْقَى لها فى مُضْمَرِ القَلْب والحَشا

سريرةُ حُبٍ يومَ تُبْلَى السَّرائرُ !

فقال : لمن هذا الشعر ؟

فقلت : للأحْوَص !

قال : مافعل الله به ؟

قلت : محبوس !

قال: فكتب من ساعته بإطلاقه ، وأمر له بأربعمائة دينار ، وقَدِمَ إليه ؛ فأحسن جائزته !

وهذا - كما يقول ابن رَشيق - من منافع الشعر !

ولقد تغزل الأحوص فى «الذَّلْفَاء» أيضًا ، وقال :

إنما الدَّلْفَـــاءُ هَمِّى ... فلْيـــدَعْنِى مَن يلوم !
أحْسَنُ الناسِ جميعًا ... حين تَمْـــشِى وتَقُـــوم
حَـبّبَ الدّلفـاءَ عندى ... منطقٌ منهـــا رَخـــيم
أَصِلُ الحـــبلَ لتَـــرْضى ... وهى للحَبْلِ صَـرُوم [1]
حُـبّـهـا فى القلبِ داءٌ ... مُـــسْـــتَكِنٌّ لا يَريم

وبعد : فإن شعر الأحوص شعر رقيق ، يذوب سهولة وطرافة ، ومن ورائه عاطفة جامحة !

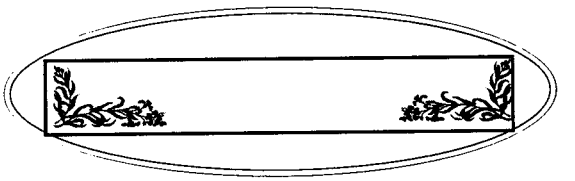

(١) الصَّرم : بفتح الصاد : القطع . وصَرُوم من صيغ المبالغة .

٦- توبة وليلى

قصة حب عنيف عفيف ، صادف قلبا خاليا فتمكن !

وفرقت الأيام بين جسديهما ، لكنهما ظلا على وفائهما فما الحب إلا للحبيب الأول !

وليلى الأخيلية من النساء المتقدمات فى الشعراء كالخنساء من شعراء الإسلام .

وكان توبة يهواها ، ويقول فيها شعرا على عادة العرب يعبر فيه عن هواه ، ومكنون نفسه ، ويشكو بثه وجواه ! وهو صادق فى حبه ، ولهذا عبر لأهلها عن رغبته فى الاقتران بها تتويجا لحبهما المتبادل !

ولكن أهلها قابلوه بالرفض لالشىء يعيبه إلا أنه تناولها فى شعره وإن كان عفيفا !

إن العربَ الأُباة لا يزوجون بناتهم مِمّن شهَّر بِهِنّ !

ولم يقف الأمر عند الرفض بل شكاهُ قومها إلى السلطان !

وأهدر السلطان دمَه إن هو تعرض لها ، أو طاف بدارها بعد أن زوجوها بغيره ، وحرموها منه وحرموه منها !!

وهام على وجهه ! يبكى ليلاه ، وحظه العاثر ! ومن غرائب المصادفات أن يحل عليه الليل فيرى بيتا بوادٍ فيقبل عليه ، وينزل ضيفا إلى جوار الخباء حيث ينزل الضيف !

وأبصر امرأة وصبيانًا يدورون بالخباء ، فلم يكلمه أحد ! حتى إذا مضى قسم من الليل جاء رجل ، فأناخ بعيره ، واتجه إلى البيت ، وماهى إلا دقائق حتى سمع الرجل يناجى المرأة ، ويقول لها : من ذلك الذى أناخ بالقرب من خبائنا ؟!

قالت : إنه راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ، لكن لم نكلمه ، ولم يكلمنا .. ولا نعرف من أمره شيئا !! قال لها زوجها : كذبت .. ماهو إلا بعض خُلانك ! ونهض يضربها ... وهى تناشده !!

لكن الغيرة أخرجته عن صوابه ، وهى تناشده أن يكف عن ضربها ، وهو يقول :

والله لاأتركُ ضربَك ، حتى يأتى ضيفُك هذا ، فيغيثك ، وينقذك !

فلما نَفِدَ صبرها صاحت قائلة :

ياصاحب البعير ... يارجل !!

وهى لاتعرف أنه هو !

فأسرع إليها - وهو لايعرف أنها هى ! - حتى أتاها وهو يضربها ، فضربه ثلاث ضربات أو أربعا، ثم أدركته المرأة ، فقالت :

بعد أن خلصها منه :

يا عبدَ اللهِ .. مالَك ولنَا ..

نَحّ عَنّا نفسك !

فانصرف ، وركب راحلته فى ظلام الليل ، وهو يظن أنه قتل زوجها وهو لايدرى !

فلما أصبح الصباح جاءته الأخبار بما خفى عليه من أمر المرأة وزوجها !

وأقر على نفسه قائلاً :

دعتنى دعوةً فَحَجَزْتُ عَنْها
بَصكّاتٍ رفعتُ بها يمينى
فإن تَكُ غَيْرةً أبْرِئْكَ منها
وإن تك قد جُنِنْتَ ، فذا جُنونى !

وعاشا حبيبين على البعد .. كل فى طريق .. وكان «توبة» كثير الغارات ، فقتل فى إحدى غاراته .. وسجل التاريخ أروع رثاء قالته مُحبة فى حبيب فرقت بينهما الأيام .

** أروع شعر الأخيلية ! **

فى رثاء توبة

أقسمت أرثى بعدَ توبةَ هالكًا
وأحْفِلُ من دارت عليه الدوائرُ
لَعَمْرُك ما بالموت عارٌ على الفتى
إذا لم تُصِبْه فى الحياة المعابِرُ
وما أحدٌ حيًّا وإن كان سالمًا
بأخلدَ ممِنّ غيَّبتْه المقابِرُ
ومَن كان مِمَّا يُحْدِثُ الدهرُ جازعًا
فلا بدّ يومًا أن يُرى وهو صابرُ
وليسَ لذى عيش من الموت مذهبٌ
وليسَ على الأيام والدهر غابِرُ[1]
ولا الحَيُّ مما يُحْدِثُ الدهرُ مُعْتِبٌ
ولا الميت إن لم يصبر الحيُّ ناشِرُ
وكل شَبَابٍ أو جديدٍ إلى بِلَى
وكلّ امرِئٍ يوما إلى الله صائرُ
وكلُّ قرينَىْ أُلفةٍ لتَفَرُّقٍ
شَتَاتًا ، وإن ضنًّا ، وطال التَّعَاشُرُ
فلا يُبعِدَنْك اللهُ ياتوبَ هالكاً
أخا الحرب إن ضاقت عليه المصادرُ
فأقسمتُ لا أنفكُّ أبكيك ما دَعَتْ
على فَنَنٍ[2] ورقاءُ أو طار طائرُ
قتيل بنى عوف ، فيا لهفتا له
فما كنتُ إياهم عليه أحاذرُ !

---

(١) غابر : باق . (٢) فنن : غصن ، والجمع أفنان . والورقاء الحمامة .

✍ ليلى والحجاج:

ومرت أيام وأعوام ؛ ذهب فيها شباب ليلى ، وذبلت زهرتها ! وذات يوم دخلت ليلى على الحجاج فقال لها :

إن شبابك قد ذهب ، واضمحلّ أمرُك وأمر «توبة» ، فأُقسِمُ عليك إن لا صدقتنى : هل كانت بينكما رِيبة قط ؟ أو خاطبك فى ذلك قط ؟!

فقالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لى ليلة وقد خلونا[1] كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :

وذى حاجةٍ قلنا له : لاتَبُحْ بها

فليس إليها ما حييتُ سبيلُ

لنا صاحبٌ لاينْبَغِى أن نَخُونَه

وأنت لأخرى فارغ وحَليلُ

فلا والله ما سمعت منه رِيبةً بعدها حتى فرق بيننا الموت !

قال الحَجاج : فما كان منه بعد ذلك ؟

قالت : وجّه صاحبًا له إلى حاضرنا (حَيّنَا) ، فقال : إذا أتيت الحاضر من بنى عُبادة بن عقيل ، فاعْلُ شَرَفًا (مكانا عاليا) ، ثم اهتف بهذا البيت :

عفا اللهُ عنها هَل أبيتَن ليلةً

من الدهرِ لا يَسْرِى إلىّ خَيالُها ؟!

فلما فعل الرجلُ ذلك عرفتُ المعنى ، فقلت له :

وعنه عفا رَبّى وأحسن حِفْظَه

عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالها !

---

(١) هذا ، والإسلام حرم الخلوة بالأجنبية ، والخطبة أيضا لا تبيح الخلوة ! فما بالنا بمن كانت لأجنبى ؟!

ليلى ومعاوية:

وقال لها معاوية : من أى الرجال كان ؟ قالت :

أتَتْـــه المنايا حين تَمّ تَمَـــامُـــه

وأقـصَـرَ عنه كُلُّ قِـرْنٍ [1] يُطاوِلُهْ

وكـان كليث الغَـابِ يَحْـمِى عـرينَه

وترضى به أشـبـالُه وحـلائلُه

غَـضُوبٌ حَليمٌ حين يُطْلَبُ حِلْمُـه

وسُمٌّ زُعـاف [2] لاتُصـابُ مَـقَـاتِلُهْ

قال : فأمر لها بجائزةٍ عظيمة وقال لها : خبرينى بأجودِ ما قلت فيه من الشعر ؟

قالت : ياأمير المؤمنين ، ما قلت فيه شيئًا إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر منه ، ولقد أجدت حين قلت :

جَزَى اللهُ خيـرًا ، والجـزاءُ بكَفّه

فـتًى من عُـقَـيلٍ سـادَ غـيـرَ مكَلّفِ

فـتىً كـانتِ الدنيـا تهـونُ بأسْـرها

عليـــه ، ولا ينـفكُّ جَمَّ التَّـــصـــرفِ

ينـالُ عَلِيّـــاتِ الأمـــورِ بهَـــونَةٍ

إذا هى أعـيت كُلّ خِـرْقٍ [3] مُـشَـرَّفِ

ليلى وعبد الملك بن مروان:

يقـولون : إن ليلى الأخيليـة دخلت على عـبـد الملك بن مـروان وقـد أسنّت وعجزت ، فقال لها : ما رأى توبة فيك حين هويك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولّوك ! ؛ فضحك حتى بدت له سِنٌّ سوداء كان يخفيها !

---

(١) والقِرن : المماثل يطاوله : يباريه . (٢) زعاف : فتاك وقتال .

(٣) الخِرق : السخىّ ، او الظريف فى سخاوة ، او الفتى الحسن الكريم الخليقة . والمراد أنه يحقق فى سهولة ويسر ما يعجز عنه غيره !

✍ اللقاء الأخير !

ذات يوم أقبلت ليلى من سفر ، فمرت بقبر توبة فى طريق عودتها .

فقالت : السلام عليك ياتوبة !

أنتم السابقون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ! وسكتت قليلا تم حولت وجهها إلى القوم من حولها فقالت :

أشهد أننى لم أعرف له كِذبةً قط قبل يومنا هذا !!

عَجبَ القومُ : وقالوا : كيف ذلك ؟

قالت : أليس هو القائل :

ولو أنّ لَيلَى الأخيليةَ سَلَّمتْ

علىَّ ، ودونى جَنْدَلٌ وصفائح [1]

لَسَلّمْتُ تسليمَ البَشاشَةِ أوْ زَقَا

إليها صَدَى من جانِبِ القبر [2] صائحُ

وأُغبَطُ من ليلَى بما لا أناله

الا كلّ ما قَرّتْ به العين صالحُ

فما باله لم يسلم على الآن ؟

✍ النهاية الأليمة !!

وكانت إلى جانب القبر «بومة» مختبئة ، فلما رأت الهودج ... فزعت .. وطارت مذعورة فى وجه الجمل ! فخاف هو الآخر ، واضطرب ، وهاج ، ورمى بليلى ، فسقطت على رأسها فماتت لوقتها ، ودفنت هناك على مقربة ممن كان أحب الناس إلى قلبها .. وأقربهم إلى روحها !

---

(١) الجندل الحجارة ، والصفائح جمع صفيحة : كل عريض من حجارة أو غيرها ، ويقصد ما يحيط به فى قبره .

(٢) زقا : صاح ، والصدى هنا : طائر كالبومة كانت العرب تزعم أنه يخرج من رأس القتيل ويصيح: اسقونى .. حتى يأخذوا له بثأره !

٧- بَشّار وعَبْدَةُ !

كان لبشار بن بُرْد مجلسٌ يجلس فيه يقال له : «البَرَدان» .فبينما هو فى مجلسه ذات يوم -و كان النساء يحضرنه -إذ سمع كلام امراة يقال لها : «عَبْدَةُ» فى المجلس ، فدعا غلامَهُ فقال :

إنى قد عَلِقْتُ [1] امراةً ، فإذا تكلمتْ فانظر من هى واعرفها ، فإذا انقضى المجلس ، وانصرف أهلها فاتبعها وكلمها ، وأعلمها أنّى لهامحب! ، وأنشدها هذه الأبيات ، وعرفها أنى أهواها :

قالوا : بمن لا تَرَى تَهذِى ؟! فقلتُ لَهُمْ :

الأُذْنُ كالعَيْن تُوفى القلبَ ما كَانَا

ما كنت أوّلَ مَشْغوفٍ بجاريةٍ

يَلْقَى بُلقْيانِها رَوْحًا ورَيْحَانَا

يا قَوْمِ أُذْنِى لبعضِ الحَىّ عاشقَةٌ

والأُذْنُ تَعْشَقُ قبل العَيْن أحيانا !

ويروى الشطر الأول من البيت الثانى :

* هَلْ مِنْ دَوَاءٍ لمَشْغُوفٍ بجاريَةٍ *

فأبلغها الغلام الأبيات ، فهشّت لها ، وكانت تزورُه مع نسوة يَصْحَبنها ، وينصرفن بعدأن يُحَدّثها ، ويُنشدها ، ولا تُطْمِعُه فى نفسها ، وقال فيها :

قالت ،عُقَيْلُ بنُ كعبٍ ، [2] إذْ تَعَلّقها

قلبى ؛ فأضحى به من حُبِّها أثَرُ :

أنَّى ولم تَرَها تَهْذِى ؟! فقلت لهم:

إنّ الفُؤادَ يَرَى مالا يَرَى البَصَرُ

أصبحتُ كالحائمِ الحَرّانِ مُجتَنِبًا

لم يَقْضِ وِرْدًا ، ولايُرْجى له صَدَرُ

---

(١) علقت امراة : احببتها . وتعلق قلبى بها .

(٢) قبيلة كبيرة كان ولاء بشار بن برد لها ، وهو يسجل فى البيت الأول موقفها من حبه ، والبيت الثانى يتضمن قولهم وردّه عليهم .. إنهم يتعجبون من هذيانه ولم يرها ، فيقول لهم : إن القلب يرى مالا تراه العين !

وقال فيها ، وهو من جيد ما قال :

يُزَهِّدُنى فى حُبِّ عبدَةَ مَعْشَرٌ
قلوبُهُمُ فيها مخالفةٌ قلبى
فقلت : دَعُوا قَلْبِى وما اختار وارتضَى
فبالقلبِ لا بالعينِ يُبْصِرُ ذُو الحُبِّ
فما تُبصِرُ العينانِ فى مَوْضعِ الهَوَى
ولا تَسْمَعُ الأُذْنَا نِ إلاّ مِنَ القَلْبِ
وما الحُسْنُ إلاّ كُلّ حُسْنٍ دَعَا الصَّبَا
وألَّفَ بينَ العِشْقِ والعاشِقِ الصَّبِّ

* ومما قاله ردا على من عابوا عليه حُبَّه وهو أعمى[1] :

وَعَيَّرنى الأعداءُ ! ، والعَيبُ فيهمُ
وليسَ بعارٍ أن يقال : ضَريرُ !
إذا أبصَرَ المرءُ المُروءَةَ والتُّقَى
فإن عَمَى العينين ليس يَضيرُ
رأيت العَمى أجرًا ، وذُخْرا ، وعِصْمَةً
وإنى إلى تلك الثلاث فَقِيرُ

✍ عبدة ترسل إليه السلام فيرد عليها

ويحكى رَاوِيتُهُ ، فيقول :

إنى لعند بشار ذات يوم إذ أتته امرأة فقالت يا أبا مُعاذ ، عَبْدَةُ تُقْرِئك السلام ، وتقول لك :

قد اشتد شوقُنا إليك ، ولم نَرَك منذ أيام ،فقال لراويته :

خذ الرقعة ، واكتب فيها ما أقول لك ، ثم ادفعه للرسول ، فأملى عليه:

عَبْدَ إنى إليكِ بالأشواقِ لِتَلاقٍ ، وكيفَ لى بالتلاقى ؟!
أنا والله - أشتهى سِحْرَ عَيْنَيـ ـكِ ، وَأخْشَى مَصَارِعَ العُشَّاقِ[2]

(١) انظر «غرر الخصائص» ص ١٨٧ . وديوانه ج ٤ . (٢) إنه يخشى من عواقب العشق .

* ويطرأ عليها ما يطرأ على المحبين من صدود فيقول :

مَـسّنى من صُـدُودِ عـبـدةَ ضُـرُّ

فـبناتُ الفـؤادِ مـا تسـتَـقِـرُّ [1]

ذاك شيء فى القلْب من حُبّ عَبَّا

دةَ بادٍ ، وباطِنٌ يَسـتَـسِـرُّ

* ويشعر بالظلم فيقول :

ياعـبـدُ إنى قَـدْ ظُلِمتُ وإنّنِى

مُـبْـدٍ مـقـالةَ راغبٍ او راهِبِ

واتُوبُ مما تكرهينَ لتَـقْـبَلى

واللهُ يقْـبَلُ حُـسْنَ فِـعْلِ التـائبِ

* وحينما يستبد به الحب ، ويكاد يعصف بقلبه يقول :

ياعَـبْـدُ حُـبّك شَـفّنى شَـفَّـا

والحُبُّ داءٌ يورثُ الحَـتْـفَـا [2]

والحبُّ يُخْـفِـيـه المحبّ لِكَى

لايُسـتـرابَ به [3] ومـا يخـفى

* ويظل يهتف بها أن تفرج كربه .. أن تزوره .. أن تشفى فؤاده ..أن تعوده.. أن تُحيّى عن قريب .. أن ترحم عبدها .. أن تسعفه .. أن ترفه عنه ، ولكن آهاته كانت تذهب مع الريح ، ولا حياة لمن ينادى ..إنه يهتف بها قائلا :

ياعـبـدُ باللهِ فَـرّجى كُـرَبِى ... فـقـد بَرَانى وشـفّنى نَصَبِى [4]

وضِـقْتُ ذَرْعَـا بما كَلِفتُ به [5] ... من حُـبّكم ، والمحبُّ فى تَعَبِ

فـفـرّجى كـربةً شـجـيتُ بهـا ... وحَـرَّ حُـزْنٍ فى الصدر كـاللّهبِ

ولا تَظُنّى مـا أشـتكى لَعِـبَـا ... هيـهـات [6] قـد جَلّ ذا عن اللّعِبِ

---

(١) بنات الصدر : الهموم ، وبنات الدهر : شدائده ، وعدم استقرارها يوحى بتتابعها .

(٢) الحتف : الهلاك ، وشفه الحب : أنحله ونال منه .

(٣) يكون موضع ارتياب الناس فيه . (٤) نصبى : تعبى . (٥) كلفت به : تعلقت .

(٦) هيهات : بعد . جلّ : عظم . أى أن حبه جلّ عن أن يكون لمجرد اللهو واللعب !

* ويقول :

يـا عـــبـــدُ زُورِيـنـى تكـن مِنَّةً
لـلـه عـنْـدى يـوم ألـقـــــاكِ
واللهِ ثم اللهِ فـاســتـيـقـنى
إنـى لأرجـــوكِ وأخـــشـــاكِ
فـلا تَرْدُى عـاشـقًـا مُـدْنَفًـا[1]
يـرضى بـهـــذا الـقـــدرمـن ذاكِ

* ثم يقول :

ياعـبـدُ حَـيّى عن قـريبْ وتـامّـلِى عـينَ الـرقـــيـبْ
وارعَىْ وِدَادِى غـــائبـــا فـقَـدْ رَعَـيْـتُك فى المغـيبْ
أشـكـــو إلـيـكِ وإنمـا يشكو المحبُّ إلى الحـبـيب
غـرضى إليك من الهـوى غـرَضَ المريضِ إلى الطبـيب

* ثم يقول:

ياعـبـدُ بالله ارحـمى عـبَـدكِ
وعَـلّـليـــه بُـمـنَـى وَعْـــدِك
يُصـــبحُ مـكروبًا ويُمْـسِى به
ولـيس يَـدْرى مـــالـه عِنْدَك
مـــاذا تَـقـــولين لربّ العُـــلاَ
إذا تـخـلّـيتِ بـه وحـــدك ؟!

* ثم يقول:

لـم يَـطُـلْ لـيلِى ولـكـن لـم أَنَـمْ ونَـفَـى عـنـى الـكَـرَى طـيـفٌ ألَـمْ
وإذا قـلـت لهـــا : جُـــودِى لـنا خَـرَجَتْ بالصـمتِ عن لا ونعم
رَفِّـهى ياعـبـدُ عنى واعلمى أننى ياعـبـــدُ من لحم ودَمّ
إن فى بُرْدَىّ جِـسْـمًـا ناحِـلاً لو توكـأتِ عليـه لا نهـدمْ
خـتـم الحـبُّ لهـا فى عُنُقِى مـوضع الخـاتَمِ من أهلِ الذّمَمْ

(١) أدنفه الحب وأمرضه بمرض مثقل ملازم .

* وأخيرا يهتف بها :

عَـــبْـــدُ يـاقـــرّة عَـــيْنـى أنْصِـــــفـى رُوحِـى فِـــــداكِ
عـــــــاشـقٌ لـيـس لـه ذِكْـ ـر ولا هَـمٌ سِـــــــــوَاك

* ويشتد الجفاء ، وتطول القطيعة فيقول طالبا الرحمةَ :

يـاعـبـدُ يـاجـافـيـةً قـاطـعـهْ أمـا رَحِـمتِ المقلةَ الدامـعـهْ ؟!
يـاعـبـدُ خـافى اللهَ فى عـاشقٍ يهـواك حـتى تقع الواقـعـهْ !!

* وقد نظم بشار الشعر على شكل رسالة بدأها على عادة كتاب الرسائل : «من فلان » . ثم ثنى بقوله : «سلام الله عليك»، وأردف بقوله : «أما بعد » ، ثم خلص إلى مضمون الرسالة فيقول:

مـن المشـــهـــور بالحُبّ إلى قـــاســـيـــة القلبِ
ســـلام الله ذى العـــرش على وجـــهِك ياحُـــبِّى
فـــأمـــا بعـــدُ ، يا قُـــرّ ةَ عـــيـنـى ، ومُنـى قلبـى
ويـانـفـــســى الـتـى تسكُ ـنُ بـيـن الجَـنْـبِ والجـنـبِ
لقـــد أنكرتُ ياعـــبـــدَ جـــفـــاءً منك فى الكُتْب
أعـــن ذنـــبٍ ولا والّـــلـــ ـهِ مـــا أحـــدثتُ من ذنب
ولا واللهِ مـــا فـى الشّـــرْ قِ من أنثى ولا الغـــرب
ســـواك اليـــوم أهواها على جِـــدٍّ ولا لَـعْـبِ

٨- جَميل وبُثَيْنة :

جميل هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن مَعْمر أحد عشاق العرب المشهورين ، أحب ابنة عمه ، وعُرف بها فدُعِىَ «جميل بُثَيْنَة» وهما من عُذرة ، والجمال في عذرة والعشق كثير :

ويقول الرواة : كان جميل فتى شريف النفس ، شجاع القلب يخافه العدو ، ويرجوه الصديق ، وهو أحد عشاق العرب من بنى عُذرة ، الذين اشتهروا بشدة عشقهم ، وعفافهم وطهرهم ، ومنهم «جميل وبثينة» ، «كثير وعزة» و «عروة وعفراء».

* عرف جميل صاحبته فى يوم من أيام الأعياد وكان جميل بدويا يعيش فى وادى القرى ؛ فعشقها منذ كان غلامًا ، فلما كبر خطبها ، فرُدّ عنها ؛ لأنه شَبَّبَ بها فى شعره :

* ثم شاءت الظروف أن تقترن بثينة برجل سواه ، فلم يزده ذلك إلا فُتونًا إلى فتون ، ولم يُفلح أهله فى إقناعه بوجوب الكف عن هوى من ليس له منها غير النعيم بأوهام الخيال :

* وقد اعترف جميلٌ بأن من الحُمْق أن يذوبَ الرجل وجْدا بامرأة فى ذِمَام رجل سواه ، لأنها ملكت عليه أقطارَ نُهاه (عقله) وقد أضله هواه ، فلم يعد يعرف مذاهب التجمل ولا مسالك العقل :

* ولقد وقعت الجفوة بينها وبين جميل حين وقع لبثينة هوى جديد مع رجل اسمه «حجنة الهلالى» ، وهى جفوة لم تَشْفِه من جَواه ، لأنه كان قد صار إلى حالة لاينفع فيها دواء . وقد سئل بعض العُذريين : ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة »؟

فأجاب : لأن فينا جمالا وعفة .

وقيل لآخر : ممن أنت ؟ قال : «أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا» فقالت جارية سمعته: هذا عذرىٌ ورب الكعبة :

✍ تجربة فريدة!

قال لها : يا بثينة ، أرأيتِ وُدّى إياك ، وشغفى بك ،

ألا تجزينيه ؟!

قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المتحابّين !

فقالت له : يا جميل ، أهذا الذى تبغى ؟ والله لقد كنت عندى بعيدا عن الرِّيبة !

ولئن عاودت تعريضًا بريبة لا رأيتَ وجهى أبدا !

فضحك وقال : والله ما قلت هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ! ولو عملت أنك تجيبيننى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدةً عليه لضربتُك بسيفى هذا ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُك هجرةَ الأبد ! ، أَوَمَا سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بُثَيْنةَ بالذى

لوَ ابصَرَه الواشى لقَرّت بلا بلُه

بلاَ ، وبألاّ أستطيع ، وبالمنى

وبالأمل المرجُوّ قد خابَ آمِلُه

وبالنظرةِ العَجْلَى و بالعام تنقضى

أواخرُه لا نَلْتَقى وأوائلُه

* ويقول ابن خلكان : جميل بن عبد الله صاحب بثينة ، أحد عشاق العرب، عشقها وهو غلام ، فلما كبر خطبَها ، فرُدّ عنها ، فقال الشعر فيها، وكان منزلها فى وادى القرى .

وذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق وقال : قيل له : لو قرأت القرآن كان أعْوَدَ عليك مِنَ الشعر ! فقال : هذا أنس بن مالك -رضي الله عنه- أخبرنى أن رسول الله ﷺ قال : «إن من الشعر لحكمة [1]» .

---

(١) جاء فى كشف الخفاء رقم ٧٨٥ - «إن من الشعر حكمة» رواه البخارى والترمذى .

✍ إهدار دمه !

لقد كان عَلَى جميل أن يبتعد عن بثينة ، وألا يحاول الاقتراب من ديار بنى عمه بعد أن أصبحت لغيره ! ، وياوَيله إن هو اقترب من ديارهم ، وهو الذى كان مَوْضِعَ ترحيبهم ، وفى ذلك يقول مصورًا ما يعانيه من يأسٍ :

لقد ظن هذا القلبُ أن ليس لاقِيًا
سُلَيْمَى ، ولا أُمّ الحُسَيْنِ لحين[1]

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى
وَهمُّوا بقتلى يابُثَيْنَ لَقُونى

إذا ما رأونى طالِعًا مِن ثَنيَّةٍ
يقولون : « مَن هذا »؟ ، وقد عرفونى [2]

يقولون لى : أهلا وسهلاً ومرحبًا
ولو ظَفِروا بى خاليًا قَتَلُونى

ولو أرْسَلَتْ يومًا بثينةُ تبتغى
يمينى ، وقد عزت علىَّ يمينى

لأعطيتُها ما جاء يبغى رسولُها
وقلت لها - بعد اليمين - : سَلينى

سَلِينى مَالى يابُثَيْنَ فإنما
يُبَيّنُ عندَ المالِ كُلُّ ضَنينِ

فمالَك لَمّا خَبَّرَ الناسُ أنّنِى
أسأتُ بظهرِ الغَيْبِ لم تسلينى [3] ؟!

فأَبْلِىَ عُذْرًا ، أو أجىءَ بشاهدٍ
من الناس عدلٍ : أنهم ظلمونى [4]

بُثَينُ ؛ الزمى لا ، إن لا ، إن لزمتِهِ
على كثرةِ الواشينَ أىّ مَعُونِ [5]

---

(١) سليمى وأم الحسين : أختان لبثينة .
(٢) الثنية : طريق فى الجبل .
(٣) أسأت بظهر الغيب : أسأت إليك فى غيابك.
(٤) فأبلى عذرا : فأقدم عذرا .
(٥) المعون : المعونة .

لَحَا [1] الله من لا ينفع الوعدُ عنده

ومَن حَبلُه - إن مُدّ - غيرُ مَتينِ

ومن هو ذو وجـــهين ليس بدائم

على العـــهـــد خَـــلاّفٌ بكل يَمِين

ولستُ وإن عـــزَّت علـى - بقـــائل

لهـا بعد صَرْمٍ : يابثَيْنَ ، صِلِينى[2]!

✍ ارحمينى !

ولما أقرحَ الحبُّ قلبَه طلب إليها أن ترحمه قائلا :

ارحـمـينى ، فـقـد بُليتُ ، فـحـسـبى

بعضُ ذا الداءِ ، يابثـينةُ حَسْبِى

لامَنِى فِيكِ - يابثـينةُ - صَـحْـبِى

لا تلومـوا ، قـد أَقْرحَ الحبُّ قَلْبِى!

إن قصة جميل تمثل الشخصية النبيلةالتى بلغت الغاية فى الشعر والعشق ، وسارت أخبارها فى الرجولة والشهامة !

✍ تحذير!

لم تنقطع محاولات جميل ، فقد أعماه الحب ! ، ولم يكن يُطيق فراقها ؛ فكان يحاول أن يلقاها بمنزلها بوادى القرى ، وجمع له قومها جمعا ليأخذوه فحذرته بثينة فاستخفى وقال :

ولـو أنّ ألـفَـــــــا دُونَ بَـثْـنَـة كـلُّـهُـم

غـيَـارَى ، وكُلٌّ حَـارِبٌ مُـزْمِعٌ قَـتْلى

لَحَـاوَلتُـهـا إمّـا نَهَـارًا مُـجـاهِرًا

وإمـــا سُـــرى ليلٍ ولو قُطِعَتْ رِجْلى

وهجا قومها ، فاستعدوْا عليه «مَرْوانَ بنَ الحَكَم» وهو يومئذ عامل معاوية على المدينة ، فنذر ليقطعن لسانه ، فلحق بجُذام وهو حى من اليمن ، وقال :

(١) لحاه : لامه وعذله . (٢) الصَّرم (بفتح الصاد المشددة) : القطيعة ، والهجر .

أَتَـانـىَ عـن مَـــــــــــــروانَ أنـه مُـقِـيـدٌ دَمِى أو قـاطعٌ من لسـانيَا [1]
ففى العيس مَنجاةٌ ، وفى الأرض مهربٌ إذا نحن رفَّـعْنَا لهن المثـانيـا [2]

فأقام هناك إلى أن عزل مروان عن المدينة ، ثم راح يضرب فى الأرض ؛ إنه لا يُطيق صبرًا على فراقها والبعد عنها !

لقد صادف حبها قلبا خاليا فتمكن !

وها هو ذا مهدد بإهدار دمه إن عَبّر عن هواه ! أوشكا ما يعانيه ! وطالت به الحيرة فى تلمس أسباب الخلاص من هواه ، فلم يجد أفضل من الرحيل إلى مصر ، وفى مصر ظفر بالشفاء الأعظم حين صعدت روحه إلى باريها !!

ويأتيها خبره فتقول :

وإن سُلُوّى عن جـمـيلٍ لَسـاعَـةٌ من الدهرِ لا حانت ولا حان حَيْنُهـا
سـواءٌ علينا ياجـمـيلُ بن مَـعْـمَـرٍ إذا مِتَّ : بأسـاءُ الحـيـاةِ ولينُهـا

هذه «هى قصة حب جميل» التى سجلها شعره ؟ إنه يقول :

ألا لَيْتَ شِـعْـرِى هل أَبِيْـتَنَّ ليلة
بوادى القُـرى ؟ إنى إذاً لَسَـعِـيـدُ ! [3]
وهل أَلْقَـيَن فـرداً بُثَـيْنَةَ مَـرَّةً
تجـودُ لنا من وُدّها ، ونَجـودُ [4]
عَلِقتُ الهـوَى منهـا وليـداً ، فلم يَزلْ
إلى اليـوم يَنْمِى حُـبُّـهـا ويَزيدُ
وأفنيتُ عـمـرِى بانتظارىَ وعـدها
وأبْلَيْتُ فـيـهـا الدهرَ وهو جَـديدُ
فـلا أنا مـردودٌ بِمَـا جـئتُ طالبًـا
ولاحُـبُّـهـا فـيـمـا يَبِـيـدُ يَبِـيـدُ

(١) مقيد دمى : أى سافك دمى .
(٢) العيس : النوق . المثانى جمع مثنى وهو الرّسَن ، والرسَن : الزمام على أنف البعير .
(٣) كان أهل بثينة يقيمون فى وادى القرى ، ويلتقى نسبها بنسب جميل فى ربيعة بن حزام .
(٤) الخلوة بالأجنبية محرمة حتى ولو كان خاطبا .

ويخشى أن يختطفَه الموت قبل أن يلقاها فيقول :

لقد خِفتُ أن يَغتالنى الموتُ بَغتةً

وفى النفسِ حاجاتٌ إليك كما هيا

وإنى لتَثْنِينِى الحفيظة [1] كُلَّمَا

لقيتُك يوماً أن أَبُثَّك ما بِيَا

هذا وأخبار جميل وبثينة تملأ كتب الأدب نقتطف لك منها ما يأتى .

✍ عبدُ الملك بنُ مروانَ وبُثَيْنَة!

دخلت «بثينةُ» محبوبةُ الشاعرِ «جميل بن مَعْمَر» على «عبد الملك بن مَرْوان» ، فقال لها :

والله يا بُثَيْنَةُ ما أرى فيك شيئًا مما كان يقول جميل !

قالت : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنه كان يَرْنُو إلىّ بعينين ليستَا فى رَأْسِكَ !

قال : وكيف صادَفْتِه فى عِفّته ؟!

قالت : كان كما وصف نفسه حيث يقول :

لاوالذى تَسْجُد الجِبَاهُ لَهُ

مالى بما دُونَ ثَوْبِها خَبَرُ

ولا بفيها ، ولا هَمَمْتُ بها

ماكان إلا الحديثُ والنَّظرُ! [2]

✍ جميلٌ عِنْدَ الرّحيل !

رُوىَ عن «ابن سهل بن سعد السَّاعدى» قال : دخلتُ على «جميل بن مَعْمَر» العُذْرىّ ، وهو عليل ، وإنى لأرى آثار الموت على وجهه ، فقال :

يا بنَ سهل !

---

(١) الحفيظة : الغضب ، والحمية ، والتقية والحذر ، والجمع حفائظ ، وأهل الحفائظ : المدافعون عن أعراضهم !

(٢) وربنا واسع المغفرة فى مثل هذا الحب العفيف حيث يقول : (إلا اللمم) وصاحب هذا الحب لم تحدثه نفسه بريبة قطّ !

أتقول : إن رجلاً يَلْقَى اللهَ لم يَسْفك دماً حراما ، ولم يشرب خمرًا ، ولم يأت بفاحشة أترجو له الجنة ؟

فقال : إى والله !

فمن هو ؟

قال: إنى لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل !

قلت : بعد زيارتك «بُثَيْنة» ، وما تُحُدِّثَ به عنكما ؟!

قال : والله إنى لَفى آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، ولا نالتنى شفاعةُ محمد ﷺ إنْ كنتُ حَدَّثْتُ نفسى بريبةٍ قَطّ!

قال : فما انقضى يومٌ حتى مات ! رحمه الله !

لقد كان يرضى منها بكل شىء تراه ، وبالأمل المرجُوّ خاب آمله !

وكان - رحمه الله - حافظا لسرها فى حبها ؛ فيقول :

إنى لأَحْـفَظُ سِـرَّكُم ويَسُـرُّنى ... لو تعلمين - بصالح - أن تُذْكَرى

ويكون يومٌ لا أرى لك مُـرْسَـلاً ... أو نَلْتَـقِى فـيـه عَلَىّ كـأشـهُـرِ

يـاليـتنى ألقى المنيّـةَ بَغْـتَـةً ... إن كـان يوم لقـائكم لم يُقْـدَرِ

ثم يقول :

يهـواك مـا عـشتُ - الفـؤادُ وإن أَمُتْ

يتـبعْ صَدَاىَ صـداكِ بين الأقْـبُـرِ

وبعد

فها هو ذا جميل ، ولئن قيل عن العذريين جميعا : إن قلوبهم تتماثُ [1] كما يتماث الملح فى الماء ، فقلب جميل يتفانى حُبّا وهُيَامًا !

وقلب جميل يخفق فى صدره كما تخفق الورقة فى مهب الريح !

لقد خفق لبثينة منذ كانا طفلين بوادى القرى !

---

(١) تتماث : تذوب .

ثم خفق لها خفوقا رافق كل طرفةٍ من طرفات عينيه !

وظلت بثينة شغله الشاغل حتى لحق بربه !

إنه لم يكن يفهم الحياة خِلوًا من «بثينة» بل كان يؤثر أن يموت على أن يبتعدَ عنها :

فمَا أنا فى طول الحياة براغبٍ

إذا قيل : قد سُوِّى عليها صَفيحُها (١)

أظل نهارى مُسْتَهَامًا ويلتقى

مع الليل رُوحِى فى المنام وروحُها

(١) صفيحها : حجارة قبرها .

٩- ذو الرُّمة ومحبوبته مَىّ

هو أبو الحارث غيلان بن عقبة أحد عشاق العرب المشهورين بذلك. ولد فى فيافى الدهناء ببادية اليمامة ، ونشأ فيها ، ثم أكثر من الترحال إلى العراق ولاسيما البصرة والكوفة ،وقد علق مية بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى وظل طول حياته هائما بحبها ، وكان يسميها فى شعره تارة ميةَ ، وتارة خرقاء

وذو الرمة : لقب لقبته به «مية» . وكان قد اجتاز بخبائها ، وهى جالسة إلى جانب أمها ، فاستسقاها ماء ؛ فقالت لها أمّها :

قومى فاسقيه . وقيل : بل خرق إداوته[1] لما رآها ، وقال لها : اخرزى لى هذه ، فقالت :

والله ما أُحسِنُ ذلك ، فإنى لخرقاء ، (والخرقاء : التى لاتعمل بيديها شيئا لكرامتها على قومها) فقال لأمها :

مُريها أن تسقينى ماء ، فقالت لها : قومى يا خرقاء ، فاسقيه ماء ؛ فقامت فأتته بماء وكان على كتفه «رَمْة» ؛ وهى قطعة من حبل ، فقالت : اشرب «ياذا الرُّمّة» ؛ فلُقّب بذلك .

ولقد اجتمع الناس مرة ، وتحلّقوا [2]حول ذى الرمة وهو يُنشدهم ، فجاءت أمه فاطلعت من بينهم ، فإذا رجل قاعد ، وهو ذو الرمة ، وكان دميما ، فقالت أمه :

استمعوا إلى شعره ، ولا تنظروا إلى وجهه !!

* وكان الفرزدق وجرير يحسدان ذا الرمة ! ، وأهل البادية يعجبهم شعره !

وقال أبو المطرّف : لم يكن أحد من القوم فى زمانه أبلغَ من «ذى الرمّة» ، ولا أحسن جوابا ، كان كلامُه أكثر من شعره !

* وقال الأصمعى : ما أعلم أحدا من العشاق الحَضَرِيّين[3] وغيرهم شكا حبًّا أحسنَ من شكوى «ذى الرمة» مع عفة ، وعقل رَصِين .

---

(١) الإداوة : إناء صغير يحمل فيه الماء . (٢) أحاطوا به .
(٣) الذين عاشوا فى المدن لا فى البدو .

وعن حماد الراوية قال :

أحسنُ الجاهلية تشبيهًا امرؤ القيس .

وذو الرّمة أحسن أهل الإسلام تشبيها .

* وخرقاء هذه كانت أصبحَ من القبس[1] ، وبقيت بقاء طويلا حتى إن «القُحَيْف العُجَيْلى» رآها فى سن متأخرة فبهره جمالُها وقال فيها :

وَخَرْقاءَ لا تَزْدادُ إلا مَلاحةً ولَوْ عُمّرَتْ تعْميرَ نُوحٍ وَجلّتِ

✍ وقيعة !

وكانت «كثيرة» أَمَةً مولَّدة لآل قيس بن عاصم قوم مى ، وكانت تقول الشعر ، فقالت شعرا ، ونسبته إلى «ذى الرمة» جاء فيه :

على وجهِ مَىّ مَسْحةٌ مِنْ مَلاحةٍ

وتحتَ الثّيَابِ الخِزْىُ لو كان باديَا

الم تر ان الماء يَخْبُث طعمُهُ

ولو كان لونُ الماءِ فى العين صافيَا

وحين سمع «ذو الرّمة» هذا الذى جاء على لسانه امتعض من ذلك وحلف بجهد أيمانه ما قاله .

قال : وكيف أقول هذا ، وقد قطعتُ دهرى ، وأفنيت شبابى أشَبّبُ بها[2] وأمدحها ، ثم أقول هذا ؟!

ثم اطلع على أن «كثيرة» قالتهما ونحلتهما [3] إياه .

✍ مَىّ لاترد عليه السلام !

ووقف ذو الرّمة فى ركب معه على مَيّة ، فسلموا عليها ؛ فقالت : وعليكم إلا «ذا الرّمة» ، فأحفظه [4] ذلك ، وغمه ما سمع منها بحضرة القوم ، فغضب وانصرف ، وهو يقول :

---

(١) اكثر صباحة ووضاءة .. (٢) يتغزل بها ويصف محاسنها .

(٣) نسبتهما إليه . (٤) اثار حفيظته وغضبه .

أيامَىُّ قد أشْمَتَّ بى - ويْحَكِ - العِدَا

وقَطَّعْتِ حَبْلاً كان - يامىُّ - باقيا

فيامَىُّ لا مَرْجُوعَ للوصْلِ بيننَا

ولكنّ هجرًا بيننا ، وتَقَالِيَا [1]

ألم تر أن الماء يَخْبُثُ طَعْمُه

وإن كان لونُ الماءِ فى العينِ صافيا

وكانت قطيعة ، وكان الهجر !

ويهيم ذو الرمة على وجهه ، ويبكى «رَبع مية» [2] فيقول :

وقفتُ على رَبْع لميةَ ناقتى

فمازلتُ أبكى عنده وأخاطبه

وأَسْقِيه حتى كادَ مِمّا أَبُثُّهُ

تُكَلّمنى أحجارُه ومَلاعِبُه [3]

ويرى ظبية فيخاطبها قائلا :

أرى فيك من خَرقاء ياظبية اللّوَى

مَشَابِهَ جُنْبُتٍ اعتلاقَ الحبائل [4]

فعيناك عيناها ، وجيدُك جيدها

ولونُك لولا أنها غيرُ عَاطِل [5]

ألا يا اسْلَمِى !

ظل ذو الرمة يرسل أناشيد الحب ، ويوجهها إلى «مية» معبرا عن خوالج نفسه قائلا :

ألا يا اسْلَمِى يادارَ مَىَّ على البِلَى

ولا زال مُنْهلاً بجرعائكِ القَطْرُ [6]

---

(١) التقالى : الكراهية المتبادلة ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ اى : وما قلاك وكرهك. (٢) الربع : الديار وما حولها والحى .. ومنازلهم فى الربيع .

(٣) أماكن اللعب فى الطفولة . (٤) يدعو لها أن تسلم من حبالة الصائد ، ولا تقع فيها .

(٥) والديوان : إلا أنها . والعاطل : التى لا حلى عليها !

(٦) الجرعاء : الرملة الطيبة النبت ، ويدعو لها بالسقيا والخصب .

فـــوالله مـــا أدرِى أجَـــوَ لان عـــبَـــرةٍ

تجود بها العينان أحجى أم الصَّبرْ ؟! [1]

فـــفى هَمَـــلان العين من غُـــصَّـــةِ الهـــوى

شـفـاء وفى الصَـبْـر الجَـلادَةُ والأَجْـرُ

إذا الهـــجـــرُ أَوْدَى طُولُه وَرَقَّ الهـــوى

من الإلْفِ لم يقطَع هَوَى مـيةَ الهجر [2]

لهـــا بَشَـــرٌ مـــثلُ الحـــرير ، ومـنطقٌ

رخـــيم الحـــواشى ؛ لا هُرَاءٌ ولا نَـزْرُ [3]

✍ يـأس !

لقد شغل حُبّ ميةَ قلبه ، وتغلغل إلى أعماق نفسه ، لا يفارقه اسمها نهارا ، ولا خيالها ليلاً ، بعد أن تزوجت من ابن عمها عاصم ، وعندئذ أصابه اليأسُ فقال :

بَدَا اليـــأسُ من مىٍّ على أنّ نفـــســـه

طويل على آثارِ مىّ نحـــيـــبُـــهَـــا

إنه يائسٌ لاينسى ، والذكرى تزيده يأسا واحتراقا ، وإذا عيناه ذَوْبٌ من الدموع المنهمرة بلا انقطاع ، وإذا اسم مى يتردد على لسانه فى كل بيت من أبياته :

وهكذا كانت «مى» ملهمة «ذى الرُّمَّة» ، وسبب عذابه ؛ وهكذا جاء شعرهُ الغزلى وجدا وجوى بل روحا معذبة ، ترتعِشُ ارتعاشةَ الطائر الذبيح وتعبر عن جواها بكلام رقيق حافل بالعذوبة واللين :

إن شعرَ ذى الرُّمّة من أروع الشعر العربى البدوى ؛الذى يذكرنا بحياة كانت بين هذين التاريخين (٧٧ ـ ١١٧ هـ - ٦٩٦ - ٧٣٥ م).

---

(١) احجى : أخلق وأجدر . (٢) أودى : أهلك .

(٣) البشر : ظاهر الجلد من الإنسان . الهراء : المنطق الكثير لا نظام فيه . والنزر : القليل .

١٠ - العباس بن الأحنف وفَوْز

براعة العباس فى الغزل براعة سارت سير الأمثال ؛ فقد أتى بالغرائب فى العتاب ، والعفاف ، والكتمان !

ومعشوقة العباس واحدة وهى « «فوز» ، ولم يحدثنا الرواة عن هويتها كما حدثونا عن هوية «عزة» معشوقة «كُثَيِّر» أو هوية «بثينة» معشوقة «جميل» .

إنه شاعر العفاف الذى يقول :

أتــأذنــون لــصَــبٍّ فــى زيــارتــكــم
فــعندكم شــهــواتُ الســمْعِ والبــصَــرِ !

لا يُضْــمِــرُ السُّــوءَ إن طَالَ الجلوسُ به
عَفُّ الضــمــيــر ،ولكن فــاسق النظر !

ولقد تفرد فى فن الغزل بأَفَانينَ ؛ فتارة يرى «العتاب» من النعم كأنّ يقول :

واحــــسنُ أيام الهــــوَى يومُكَ الذى
تُرَوَّعُ بالهــجــران فــيــه وبالعَــتبْ

إذا لم يكن فى الحُبِّ سُــخْطٌ ولا رضًــا
فــأَيْنَ حَــلاَواتُ الرَّسَــائلِ والكُتْبِ

وتارة يوصى محبوبته بنبذ ما تسمع من أخبار شركه بهواها فيقول :

وصَــالُكِ مُظْلِمٌ فــيــه التــبــاسُ
وعــنــدك لــو أردتِ لــه شــــهــــابُ

وقــد حُــمِّلْتُ من حُــبِّــيكِ [1] مــالَوْ
تــقَــسَّمَ بينَ أَهْلِ الأرضِ شــابوا

أفــيــقــى من عِــتــابِك فى أُناسٍ
شَــهِــدْتِ الحَظَّ من قلْبى وغــابُوا

يــظُــن الــنــاسُ بــى وبــهــم وأنــتــم
لكم صــــفــــو المَودّةِ واللُّبــــابُ

(١) حُبِّيك : حبى إياك .

وكنت إذا كتبتُ إليك أشكو
ظلَمْتِ، وقُلْتِ : ليس له جوابُ
فعشت أقُوتُ نفسى بالأمانى
أقول : لكل جامحةٍ إيابُ [1]
وصِرتُ إذا انتهى منّى
كتابٌ إليك لتعطفى نُبِذَ الكتابُ
وإن الوُدَّ ليس يكادُ يَبْقَى
إذا كثر التَّجنّى والعتابُ
خَفَضْتُ لمن يلوذُ بكم جَنَاحى
وتلْقَوْنى كأنكمُ غِضَابُ

* ونراه يُحِسُّ باللوعة من ضنها بالمراسلة حين قال :

ويُقْنعُنى مِمّن أُحِبّ كتابُه
ويَمْنَعُنيه [2] إنه لبخيل !

وكما يفرح بالعتاب لأنه الوسيلة إلى تذوق حلاوات الكُتب والرسائل يخاف أن ينقلب العتابُ إلى عَتْب [3] وإيذاء فيقول :

قَاسِمينِى هذا البلاءَ وإلا
فاجعلى لى من التعَزّى نصيبا
إنّ بعضَ العِتَابِ يدعو إلى العَتْـ
ـب ويُؤْذِى به المحبُّ الحبيبَا
وإذا ما القُلوبُ لم تُضْمِر العَطْ
فَ فلن يعطف العِتَابُ القلوبَا

* وقد بلغ الغاية فى التفريق بين« صدّ العتاب» و «صدّ الملال» حين قال :

لو كنتِ عاتبةً لسَكّن لَوْعَتى أمَلِى رضاك وزرتُ غيرَ مُراقَبِ
لكن ملَلْتِ فلم تكن لى حيلةٌ صَدّ المَلُولِ خلافُ صَدّ العاتِبِ

وقد ييأس من نفع العتاب فيقول :

سكوتى بلاءٌ لا أطيقُ احتمالَه
وقلبى الُوفٌ للهوى غيرُ نَازِعِ

(١) رجوع وعودة . (٢) يمنعنى إياه . (٣) عتب : لوم .

فأُقْسِمُ ما تَرْكِى عتابَكِ عن قِلَى

ولكنْ لِعِلْمِى أنه غـيـرُ نَافعِ

وأنى إذا لم أَلْزم الصبرَ طائعا

فـلابدَّ منه مُكْرَهًا غـيـر طائع

إذا أنت لَمْ يعطفك إلا شـفـاعـةٌ

فـلا خـيـرَ فى وُدٍّ لا يكُونُ بشـافع

وقد يصرخ العباس من تَجَنِّى محبوبته فيقول :

كـفى حَـزَناً أنى وفـوزًا ببلدةٍ

مُقِيمانِ فى غير اجتماع من الشَّمْل

أما والذى ناجى من الطُّور عبدَه

وأنزل فُـرْقَـانًا ، وأوحى إلى النحل

لقـد ولدت حَـوّاء مِنْكِ بليـةً

علىَّ أقاسيها ، وخَبْلاً من الخبْل

إنّ أظهر خصّيصة لهذا الشاعر هى الكتمان .. إنه يحدثنا أنه كتم الحب عن حبيبه حيناً من الزمان فيقول :

هذا كـتـابٌ بدمع عَـيْنى ... أمـلاهُ قَلْبى على لِسـانى

إلى حـبـيبٍ كَنَيْتُ عنه ... أجَلَّ ذِكْـرَ اسـمـه لسـانى

قـد كنتُ أطوى هواهُ عنه ... مُـذْ كنتُ فى سالفِ الزمانِ

فـبُـحتُ إذ طال بى بلائى ... ولـم تـكـن لـى بـه يَدانِ [1]

* ونراه يدعو على دموعه التى فضحته وكشفت المستور من أمره فيقول :

لاجَـزَى اللهُ دمعَ عَـيْنىّ خـيـرًا

وجـزى الله كلّ خـيـرٍ لسـانى

نمّ دمـعى فليس يكتم شـيـئـا

ورأيت اللسـانَ ذا كـتـمـان

(١) اليد : القوة ، واليدان : مشى اليد ؛ يقال : مالى بهذا الأمر يدان ؛ أى : لا قوة لى به .

كنتُ مـثلَ الكتـاب أخـفـاه طيٌّ

فـاسـتـدلّوا عليـه بالعُنوان

* ومحبوبته فوز من العقائل النبيلات فى بغداد عرفها الشاعر وأحبها ، ولم ير من العقل أن يؤذيَها بالافتضاح . إنه يقول :

إذا أحـبـبتَ أن تصنـ عَ شيئـا يُعجبُ النّاسَا

فـصـور ههنا فـوزًا وصَـوّر ثَمَّ عَـبّـاسَـا

فـإن لم يدنوَا حـتى ترى رأسيـهـمـا راسـا

فكذبهـا بما قـاست وكـذبه بما قـاسى

✍ قلب ألَحَّ عليه الحُبّ !

ويبكى قلبه الذى انصدع فيقول :

عـدلٌ مَنِ الله أبكانى وأضْـحَكَهَـا

فـالحـمـدُ لله عـدلٌ كلُّ مـا صنَعـا

اليـومَ أبْكِى عَلَى قلْبى وأندبُه

قلب ألحَّ عليـه الحُبُّ فـانصـدعـا (١)

ويشكو إلى ربه ماحل به على يد محبوبه فيقول !

إن قـال لَمْ يَفْـعلْ ، وإن سِـيلَ لم

يبـذُلْ ، وإن عُـوتبَ لم يُعْـتِبِ (٢)

صبٌّ بعـصْـيـانِى ، ولو قـال لى

لا تَشْـرب البـاردَ لَم أَشـربِ (٣)

إليـك أشكـو ربَّ مـا حَلَّ بـى

من صـدٌّ هذا المذنب المغْـضَبِ (٤)

---

(١) ألح فى السؤال : واظب عليه ، والإلحاح هنا : بمعنى الإسراف ، وانصدع : انشق .

(٢) سيل : سئل . يعتب (بضم الياء وكسر التاء) يُرْضَ . يقال : استعتبت فلانا فأعتبنى : استرضيته فرضى .

(٣) صب : مغرم ، وسكان جزيرة العرب شديدو الولع بشرب الماء البارد لشدة الحر فى بلادهم .

(٤) الصد والصدود : الإعراض .

✍ كيف احتراسى من عدوى؟!

قلبى إلى مـــا ضَـــرّبى داعِ ... يُكثـــر أَسْـــقَـــامى وأوجـــاعِى
كـــيف احـــتـــراسِى من عـــدوى إذا ... كـــان عـــدوى بين أضـــلاعى ؟!

* وقصة «عباس بن الأحنف» إمام العشاق الشرفاء فى العصر العباسى ورافع راية الوجْـدان السليم من أروع قـصص الحب والعـذاب فى الحب ! إن معشوقته تفتحَ له أبوابا من المَنُون (الهلاك) .

سَلَبَـــتْنى من السُّـــرور ثِيـــاباَ
وكَـسَـتْنِى من الهـمُـوم ثيـابا
كلمـــا أغلقتُ مِنَ الوصْلِ بابًا
فـــتـــحَتْ لى إلى المنيّـــة بابا
عَـذّبينى بكلّ شىءٍ سـوى الصَّـ
ـدّ فـمـا ذُقْتُ كـالصُّـدُودِ عـذابا

* ويحدثنا أن أشعاره كانت تفتح مغاليق القلوب فيقول :

أُحْـــرَمُ منكمْ بما أقـــولُ وقـــد
نالَ به العـاشـقـون من عَـشِـقُـوا
صـــرتُ كـــأنى ذُبالة[1] نُصِـــبَتْ
تُضِىءُ للناس وهى تحـــتَـــرق !

* قتيل الحب لاقتيل الحرب !

حاول العاشق أن يداوى مرضه برحلة إلى الحجاز فى موسم الحج ، ولكن المرض عوقه فى الطريق ، فقال يخاطب الحجاج :

أَزُوَّارَ بيت الله مُـــرُّوا بيـــثـــربٍ
لحـاجـة مَـتْـبُـولِ[2] الفُـؤادِ كـئـيبِ
وقـولوا لهم : ياهل يثـربَ أَسْـعِـدُوا
على جَلَبٍ للحـــادثات جليبِ[3]

(١) الذُّبالة : الفتيلة التى تُسرج . (٢) تبله الحب : أسقمه وذهب بعقله فهو متبول كئيب : حزين !
(٣) أسعدوا : ساعدوا وعاونوا . والجليب : المجلوب .

فـإنا تركنا بالعـراق أخـا هَوًى

تَنَشَّبَ رهنًا فى حِبـال شَـعُـوب[1]

به سـقمٌ أعـيـا المداوين علمُـهُ

سوى ظنهم من مُخطئ ومُصِيبِ

إذا مـا عصرنا الماء فى فيـه مجّهُ

وإن نحن نادينا فـغـيـرُ مُـجـيب[2]

خـذوا لى منهـا جَرعـةً فى زجاجـة

ألا إنهـا لو تعلمـون طبـيـبى !

وسـيـرُوا فـإن أدركـتمُ بى حُـشاشـةً

لهـا فى نواحى الصدر وجْسُ دبيب [3]

فـرُشُّـوا على وجـهى أفق من بَلِيَّـتِى

يثـيـبكُمُ ذو العـرش خـيـرُ مـثـيب

فـإن قـال أهلى : مـا الذى جـئـتُمُ به ؟

وقـد يُحـسنُ التـعليلَ كُلُّ أريبِ [4]

فـقُـولوا لهم : جئناه من مـاء زمـزم

لنشـفـيَـه من دائه بذَنُوبِ [5]

وإن أنتُمُ جـئـتمُ وقـدْ حـيل بينكم

وبينى بيـوم للمَنُونِ عـصـيب

وصرتُ مِنَ الدنيا إلى قَعْر حُفْرَةٍ

خليفَ صـفـيحٍ مُطْبقٍ وكَـثِـيبِ [6]

فرُشوا على قبرى من الماء واندبُوا

قـتـيلَ كَـعَـابٍ [7] لاقـتـيلَ حُـروبِ

يرحمه الله لقد أكرم البَغْداديُّون ذكراه فسموا باسمه شارعا هو أجمل شوارع بغداد آنذاك !

---

(١) شَعُوب : الموت . إنه كالطائر الحبيس فى شبكة الموت .

(٢) مجه : رده ، ولم تقبله نفسه . (٣) حشاشة : بقية الروح فى المريض .

(٤) أريب : ذكى . (٥) الذّنوب : الدلو .

(٦) الصفيح المطبق : ما يحيط به من حجارة القبر . والكثيب : الرمل .

(٧) الكعاب كسحاب : الفتاة التى نهدَ ثدياها .

وصلى عليه «المأمون» ولصلاة «المأمون» على العباس معنى من أكرم المعانى ، فما يصلى المأمون على ميت بأمر الرشيد إلا إنّ كانت للميت مكانة فى المجتمع ، لقد كان يجالس الرشيد ، وكان يصحبه فى بعض الرحلات ، وكان شعره على كل لسان !

✍ كلنا يبكى على سكنه !

* هو ذا «أبو الفضل العباس بن الأحنف» الشاعر المشهور يرحمه الله !

لقد كان رقيق الحاشية ، لطيفَ الطباع ، جميع شعره فى الغزل !

* وحكى المسعودى فى كتاب «مروج الذهب» عن جماعة من أهل البصرة قالوا :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غلام واقف على المحجة[1]، وهو ينادى :

أيها الناس ، هل فيكم أحد من أهل البصرة ؟ قال فعَدَلنَا [2] إليه ، وقلنا له: ما تريد ؟

قال : إن مولاىَ - لما به - يريد أن يُوصيَكم ، فملنا معه ، فإذا شخص مُلْقًى على بُعْدٍ من الطريق لايُحيرُ جوابا ، فجلسنا حوله ، فأحَسَّ بنا ، فرفع طرفه ، وهو لايكاد يرفعه ضعفا ، وأنشد :

يا غريبَ الدارِ عن وطنه
مُفْرداً يبكى على شَجَنِهِ
كلما جَدّ البُكاءُ به
دبَّتِ الأسقامُ فى بَدنِهِ

ثم أغمى عليه طويلا ، ونحن جلوس حوله ، إذ أقبل طائر ، فوقع على أعلى الشجرة ، وجعل يغرّدُ ، ففتح عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ، ثم أنشأ الفتى يقول :

---

(١) المحجّة : الطريق المستقيم . (٢) ملنا إليه واتجهنا نحوه .

يا غـــريبَ الدارِ عَن وطنه

مـــفـــرداً يبكى على فَنَنِهْ[1]

شَـفّـه مـــا شـــفنى فـــبكى

كُلُّنَا يبكى على سكنه !

قال : ثم تنفسّ تنفسًا فاضت نفسهُ منه ، فلم نبرح من عنده حتى سألنا الغلام عنه ، فقال : هذا العباس بن الأحنف !

(١) الفنن : الغصن .

١١- عبدُ اللهِ بنُ عَلْقَمَةَ وحُبَيْشَةُ :

«عبد الله بن علْقمةَ» فتح عينيه ذات يوم وهو غلام يتيم على «حُبيشة» فبهره جمالُها ، وكانت فتاةً صغيرة لا تمت إليه بقرابة ، وليست من قومه ؛ فراح ينتهز الفرصَ التى تُتيح له أن يتحدث إليها ، وتتحدث إليه :

فخرج من عندها ذات يوم ، فنظر إلى ظبية على رابية وقال لأمه ، وهو يشير إلى الظبية :

يَا أُمَّتِى خَبِّرينى غيرَ كاذبةٍ

وما يُرِيدُ مَسئولُ الخُبْرِ بالكَذِبِ[1]

حُبَيْشُ أحسنُ أم ظبىٌ برابية ؟

لا ، بَلْ حُبَيْشَةُ مِنْ ظَبْىٍ ومن ذهبِ[2]

* ثم انصرف من عندها مرَّةً أخرى فأمطرته السماء ، فأنشأ يقول :

وما أدرى إذا أبصرتُ يومًا

أصَوْبُ القَطْرِ أحْسَنُ أم حُبَيْشُ؟!

فلما سمع بذلك قومه قالوا لأمه :

هذا غلام يتيم لامالَ عنده ، وآل «حبيْشة» لا رغبة لهم فيكم ؛ فانظرى له بعض نساءِ قومه لعله يَسْلى عنها :

فاختارت له فتاة ذات جمال وكمال ، وزيّنتها بأحسن زينة ، وعرضتها عليه ، وأقامتها بين يديه ، فلما نظر إليها قال :

«مَرْعَى ، ولا كالسَّعدان!»

فذهبت كلمته مثلا ، و«السعدان» نَبْتٌ يرعاه إبل الملوك ، فعلموا أنه لاينصرف عن هوى حُبَيْشة :

فتواعدوا «حبيشة» ، وقالوا : إذا جاء فأعرضى عنه ، وتجهميه[3] بالكلام؛ رَجَاءَ أن ينصرف عنك بعض الانصراف :

(١) مَسئول : هى كلمة مسئول خففت همزتها وسُهلت . والخُبر (بضم الخاء) الاختبار . اريد : الجواب الصادق .

(٢) الرابية : الربوة العالية . (٣) تجهميه : عامليه بجفاء ولا تخضعى له بالقول :

فلما رأته لم تستطع أن تفعل ما أُمرت به ، غير أنها جعلت تنظر إليه ، وتبكى ؛ فعلم بقصتها ، فانصرف وهو يقول :

وما كان حُبىّ عن نوالٍ بَذلْتُهُ

فليس بِمُسْليه التجهمُ والهجْرُ

ولم أنْسَ مِلأَشْياء لا أنسَ دمعها

ونظرتها حتى يُغَيِّبنى القَبْرُ[1]

ثم مكثا على حالهما ، وطول وجدهما ، إلى أن وافتهما خيل خالد بن الوليد يوم الغُميصاء[2] فأُخذا فيمن أخذ من الأسرى ، فأوثقا رباطهما ؛ كما حكاه المدائنى عن أبى حدرد الأسلمى عن أبيه قال : كنت يوم الغميصاء وهو يوم بنى جذيمة فى خيل خالد بن الوليد المخزومى حين وجهه رسول الله ﷺ ، فقتل وأسر ، فقال لى فتى منهم - وقد جُمعت يداه إلى عنقه ، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه - : يا فتى !

هل أنت آخذ بزمام ناقتى ، فقائدى إلى هؤلاء النسوة ، فأقضى إليهن حاجةً ، ثم ترى بعد ذلك ما بدا لك ؟!

قلت : يَسيرٌ ما سألت ! فألحقته بهن ، فوقف عليهن ، فقال :

«اسلمى حُبيشُ على نفاد العيش !»

قالت : وأنت فاسلم ، سَعيْت سقاك ربى الغيث !

ثم قالت : وأنت فحُيِّيتَ عشرا ، وسَبْعًا وترًا ، وثمانيا تترى[3] فقال الفتى :

أرَيْتُكِ إذْ طالبتكم ، فوجدتكم

بحَلْية أو الفيْتُكمُ بالخوانق[4]

---

(١) ملأشياء : من الأشياء .

(٢) الغميصاء : هو يوم بنى جذيمة .

(٣) تترى : متتابعات تجىء الواحدة بعد الأخرى .

(٤) أريتك : كلمة تقولها العرب بمعنى أخبرينى . وحلية والخوانق : موضعان .

ألم يكُ حقّا أن يُنوّل عاشقٌ

يُكلّف إدلاجَ السُّرى والودائقِ [1]

فلاذنبَ لى ، قد قلت إذ نحن جيرةٌ :

أثيبى بوُدّ قبل إحدى الصفائق [2]

ثم بكى وبكت !

وهكذا كان «عبد الله بن علقمة وحبيشة» مثلا للحب الصادق العفيف !

(١) الإدلاج : السير ليلا . الودائق : الواحدة وديقة : الموضع فيه عشب ، أو بقل . والسُّرى : السير ليلا . والإدلاج : اختراق الظلمة .

(٢) الصفائق : الحوادث .

١٢ - عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات

كان هواه فى رقية بنت عبد الواحد ، وكان عبد الواحد ينزل الرَّقة ، وإياه عنى ابن قيس بقوله :

ما خيرُ عيشٍ بالجزيرة بعد ما
عثر الزمان ، ومات عبد الواحد

ولقد شبب بثلاث نسوة سُمّين جميعا «رقية» ، ولهذا لُقّبَ بالرُّقيّات ومنهن رقية بنت عبد الواحد .

وله فى الرقيات عدة أشعار .

ويُعَدُّ ابن قيس الرقيات شاعر قريش بلا منازع !

وفى رقية يقول :

رُقَىّ بعيشِكم لا تهجُرينا
ومَنِّينَا المُنَى ، ثم امطُلِينا
عِدينا فى غَدٍ ما شئت إنّا
نحب - وإن مَطَلْتِ الواعدينا
أغَرّكِ أننى لا صبرَ عِندى
على هَجْرٍ ، وأنك تَصبِرينَا
ويَوْمَ تَبِغْتُكُمْ وتركتُ أهلى
حنين العَوْدِ يتَّبعُ القَرينا [1]

* ثم يقول :

رُقَيّةُ تَيَّمتْ قَلْبِى فَوَاكَبِدِى من الحُبِّ
نَهانى إخْوَتِى عَنْها وما بالقَلْبِ مِنْ عَتْبِ

* ويصور ما دار بينه وبين عواذله فيقول :

بَكَرَتْ عَلَىّ عَوَاذِلى يَلْحَيْنَنِى [2] والومُهُنّه

(١) العَوْد (بفتح العين) : الجمل المسن جمعه عِوَدة كديكة .
(٢) يلحيننى : يلمننى .

ويَقُلْن : شـــيبٌ قـــد عَـــلا ... ك وقد كَبِرْتَ فقلت : إنّهْ [1]

إن الـعَـــــــــوَاذِل لُـنَـنـى ... ولـن أُطـيـعَ أمـــــــورَهُـنّـهْ

فـيـمـا أُفـيـدُ من الغِنَى ... والله ســـوف يُهـــينُهُنّهْ

ولقـد عَـصَـيتُ النّاهيـا ... تِ الناشـرات جُـيـوبَهُنَّهْ

حـتى ارعـوَيتُ [2] إلى الرشـا ... دِ ، ومـا ارعـويت لنَهْـيـهِنَه

---

(١) إنّه : بمعنى نعم حرف جواب .

(٢) ارعوى . كف وارتدع .

١٣- عُرْوَة وعفراء !

عُروة بن حزام «شاعر إسلامى» أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى ، لا يُعرف له شعر إلا فى عفراء بنت عمه عقال.

حديث عروة وعفراء

كان من حديث «عروة بن حِزام » و«عَفراء بنت عِقال» أن حِزامًا مات ، وترك ابنَهُ «عُرْوَةَ» صغيرا فى حِجر عمه «عِقَال» .

وكانت عفراء تِرْبًا [١] لعُرْوة ، يلعبان جميعا ، ويكونان معا حتى أَلِف كلٌ واحد منهما صاحبه إلفًا شديدًا .

وكان «عقال» يقول لعروة - لما يرى من إلفهما - : أبشر ؛ فإن عفراءَ امرأتُك إن شاء الله !

وظلاَّ على حُبهما حتى لحقت عفراءُ بالنساء ، ولحق عروةُ بالرجال ، فأتى عروة عمةٌ له يقال لها : هند بنت مهاصر ، فشكا إليها ما به من حبّ عفراء وقال لها فى بعض ما يقول لها :

ياعمة إنى لأكلمك ، وأنا منك مُستَحٍ ، ولكنى لم أفعل هذا حتى ضقتُ ذَرْعا بما أنا فيه ؛ فذهبت عمته إلى أخيها ، فقالت له : ياأخى ؛ قد أتيتك فى حاجةٍ أُحبُّ أن تُحْسِنَ فيها الرّد ، فإن الله يأجرك بصلة رحمِك فيما أسألك .

فقال لها : قولى ، فلن تسألى حاجة إلا رَددْتك بها وطلبك مجاب !

قالت : تُزَوِّجُ «عروةَ ابن أخيك بابنتك عفراء» .

فقال : ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يُرغَب فيه ، ولا بنا عنه رغبة[٢] ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عَجلَة ، فطابت نفسُ عروة ، وسكن بعض السكون !

---

(١) مماثلة له فى السن ، والجمع أتراب .

(٢) لن نتجه إلى غيره ، فليس فيه ما يجعله أقل ممن نرغب فيهم ؛ ولا بنا عنه رغبة ؛ أى لا رغبة لنا فى غيره ، ولم ننصرف عنه .

✍ عفراء تُخْطَب ؛ فيتوجه إلى عمه برغبته:

وكانت أمها سيئةَ الرأى فيه ، تريد لابنتها ذا مال ووَفْر ، وكانت أهلا لذلك كمالاً وجمالا .

فلما تكاملت سِنُّ عُروة وبلغ أَشُدَّهُ عرف أن رجلا من قومِه ذا يسار ومال كثير ، جاء يخطبُها ؛ فأتى عمّه ، فقال : ياعَمّ ؛ قد عرفت حقى وقرابتى ، وإنى ولدُك وربّيتُ فى حِجرِك ، وقد بلغنى أن رجلا يخطب «عفراء» ، فإن أسعفتَه ، ولبيت طلبه ، وحققت أمله قتلتنى ، وسفكْت دَمى ! ، فأنشدك الله ورَحمى وحَقّى !

فرقّ له ، وقال له : بنىّ ، أنت مُعدِم ، وحالنا قريبة من حالك ، ولستُ مُخرجَها إلى سِواك ، وأمها قد أبت إلا أن تُزَوجها بمهرٍ غالٍ ، فاسع وانْتَشِرْ فى الأرض ، وابتغ مِن فضل الله !

فجاء إلى أمها ، فلاطفها ، وداراها ، فأبت أن تجيبه إلا بما هى أهل له من مهر ، وبعد أن يَسوقَ إليها شطره ، فوعدها بذلك .

✍ لابد من المال !

وعندئذ علم عروة أنه لا ينفعه قرابة ، ولا غيرها إلا بالمال الذى يطلبونه !

فعزم على قصد ابن عم له كان مقيما باليمن ، وكان موسِرًا ، وأخبر عمّه وامرأتَه بعزمه ، فصوَّبا رأيَه ، ووعداه ألا يُحدثا حَدَثًا حتى يعود !

✍رحلته إلى ابن عمه :

ولقى عفراء ليخبرها بما عزم عليه ثم ودعها ، وودع الحى ، وشد على راحلته ، وصحبه فى طريقه فتَيَان من بنى هلال بن عامر كانا يألفانه.

وكان طُولَ سفره ساهيًا ، يكلمانه فلا يفهم حتى يُعيدا القول عليه مرارًا ، وكل فكره فى عفراء ! تُرى هل ستكون من نصيبه ؟! وظل على ما هو عليه حتى قدم على ابن عمه ، فلقيه ، وعرّفه حاله ، وما قدم له ، فوصله ، وكساه ، وأعطاه مئة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله ، وهو يشعر أن أمله قد تحقق ،

وأنه لم يعد هناك حائل دون زواجه ؛ وكان عفراء تستحثه على الإسراع حتى يجتمع شملهما ؛

✍ يزوجونها غيره!

وفى أثناء سفره جاء رجل من أهل الشام ينتمى إلى بنى أمية نزل فى حى عفراء ، فنحر ، ووَهَبَ ، وأطعم ، وكان ذا مال عظيم فرأى «عفراء» ، وكان منزله قريبا من منزلهم ، فأعجبته ، وتقدم لخِطْبتِها ، فاعتذر إليه أبوها وقال:

قد سميتُها إلى ابن أخ لى يَعْدِلُها عندى ، وما إليها لغيره سبيل ؛

فقال له : إنى أُرَغِّبك فى المهر . قال : لا حاجة لى بذلك ، فعاد إلى أمها ، فوافق عندها قَبولا لبذله ، ورغبةً فى ماله ، فأجابته ووعدته ، ومازالت بزوجها تحاولُ إقناعه وعدوله عن رأيه قائلة :

أىّ خيرٍ فى «عُرْوَةَ» حتى تحبسَ ابنتى عليه ، وقد جاءها الغِنَى يطرق بابَها؟

والله ما ندرى أعروة حى أم ميت ؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ إنك بهذا تكون قد حرَمْتَ ابنتك خيرا حاضرا ، ورِزقا حَسَنًا سَنِيًا ، فلم تزل به حتى قال لها :

فإن عاد لى خاطبًا أجبته ؛

فوجّهت إليه أنْ عُدْ لخِطبتها ، فلما كان من غد نحر جُزُرًا [1] عدة ، وأطعم ووهب ، وجمع الحى معه على طعامه ، وفيهم أبو عفراء ، فلما طَعِمُوا أعاد القول فى الخِطبة ، فأجابه ، وزوّجه ، فساق إليه المهر ، وحوّلت إليه عفراء ،

وقالت قبل أن يدخل بها :

ياعُرْوَ إن الحىّ قد نَقَضُوا عهدَ الإله ، وحَاوَلوا الغدرَا !!

فلما كان الليل دخل بها زوجُها ، وأقام فيهم ثلاثا ، ثم ارتحل إلى الشام ، وعَمَد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسوّاهُ ، وسأل الحىّ كتمان أمرها ، حتى إذا جاء «عروة» أخبره أنها ماتت وهذا قبرها ؛

---

(١) جمع جَزُور ، والمراد الجمال .

ولكن تشاء الأقدار ، أن يفتضح أمره ! إن عروة قد أعد نفسه ، وها هوذا قادم فى الطريق يَسوقُ مَهْرَه ، ولم يعد لعمه ولا لزوجته عذر فى رفض عروة ، وتفضيل غيره عليه نظرا لفقره ، فهاهو ذا قد هيّأ نفسه ، واستعد كل الاستعداد ، ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر !

لقد أقبل عروة فى عِيرِه تلك ، حتى إذا كان «بتبوك» ، نظر إلى رُفْقَةٍ مقبلة من نحو المدينة فيها امرأة على جمل أحمر ، فقال لأصحابه :

والله لكأنها شمائل [1] عفراء !

قالوا : ويحك ! ما تترك ذكر عفراء لشىء !

قالوا : وجاء القوم ، فلما دنوا منه ، وتبين الأمر تَسَمَّرَ فى مكانه لا ينطق ، ولا يتحرك ، ولا يرد جوابا ، وظل هكذا حتى بَعُدَ القوم ، فذلك قوله :

وإنى لتعرُونى لذكراكِ رِعدَةٌ
لها بين جلدى والعظام دَبيب
فما هو إلا أن أرَاهَا فجاءة
فأبهتَ حتى ما اكادُ أجِيبُ

وعندئذ عرف الحقيقة ،وخاب أمله ، وانقطع رجاؤه !

وجُنّ جنونه !

ثم انصرف إلى أهله باكيا محزونا ، فأخذه الهُلاس [2] و ضعفت قوته ، وساءت صحته !

وقال قوم : هو مسحور !

وقال قوم : به جِنّة !

ومرّضه أهله زمنا طويلا ، وذات يوم ، قال لنساء قومه : أعلمتُنّ أنى لو نظرت إلى «عفراء» ذهب وجعى ، وزال مابى ؟! فخرجوا به ، حتى نزلوا

---

(١) جمع شمال : الخلق والطبع .
(٢) الهُلاس : (بضم الهاء) شدة السلال من الهُزال .

«البلقاء» مستخفين ، وهناك كان يتابع أخبارَها عن قرب مكتفيا بهذا !!

فلما سمع زوجُها بمقدمه ، قال :

لو كنت قد علمت ، لضممته إلى منزلى !!

لأبحثن عنه غدا ، ولأستضيفنَّه !

فلما أصبح راح يستدل عليهم حتى جاءهم ، فقال لهم :

أراكم : وقد قَدِمْتُم ، ولم تروا أن تُعلمونى ، فيكون منزلكم عندى ، ثم حلف لا يكون نزولهم إلا عليه !

قالوا : نعم ؛ نتحوّل إليك الليلة أوغدا .

فلما ولّى قال «عروة» لأهله : قد كان من الأمر ما ترون ، فالحقن بقومكن ، فإنه لا بأسَ علىّ.

فركبوا مَطِيَّهُم ، وارتحلوا ، فنُكس [1] ، فلم يزل مدنَفا (مريضا) حتى نزل بوادى القُرَى . ومعه عجوز تمرضه !

وهناك لقى ربه غريبا شريدا!

فلما بلغ «عفراءَ» موتُه قالت فى نعيه :

ألا أيها الركْبُ المُخِبون وَيْحَكُمُ

بحَقّ نَعَيْتُمْ عُروَةَ بن حِزام [2] ؟

فلا نَفَعَ الفتيانَ بعدك لَذَّةٌ

ولارجعوا من غَيْبَةٍ بسلامِ

وقل للحَبالَى : لا يُرَجّين غائبا

ولا فَرِحَت من بعدهِ بغُلامِ

فمازالت تردد هذه الأبيات حتى فاضت روحُها ، وبلغ الخبر معاوية ، فقال:

لو علمت بحال هذين الشريفين لجمعت بينهما [3] !!

---

(١) نكس : ساءت صحته واشتدت حالته !

(٢) المخبّون : المسرعون .

(٣) فى الحلال . أى : قبل فوات الأوان !

✍ آخر ما قاله عروة بن حزَام :

وحكى عن ابن أبى عتيق قال :

بينا أنا أسير فى أرض «بنى عُذرة» إذا أنا ببيت حرير ، فدنوت منه ، فإذا عجوز تمرض شابا ، وقد نهكته العلة . وبانت عليه الذلة ، فسألتها عن خبره ، فقالت : هذا عروة بن حزام ، فدنوت منه ، فسمعته يقول :

مَن كان من أمهاتى باكيًا لغَدِ

فاليوم ، إنى أُرانى اليومَ مَقْبُوضَا

تَسَمَّعِيه ؛ فإنى غيرُ سامِعه

إذا علوتُ رقابَ القوم مَعْرُوضَا

فقلت : أنت عروة بن حزام ؟! قال : نعم ، أنا الذى أقول :

فلَهْفى على عفراءَ لهفًا كأنه

على النَّحْرِ والأحشاء حَدُّ سِنَانِ [1]

فعفراء أحْظَى الناسِ عِنْدى مودةً

وعفراءُ عَنّى المُعرضُ المتوانى

ثم خفق خفقة ، فإذا هو قد فارق الدنيا ! . وهكذا بلغ العشق من عروة بن حزام أن أفرده ببلائه ، وعذبه بدائه ، وآنسه بانفراده ، وشرده عن بلاده !

❀❀❀❀❀

(١) السنان : طرف الرمح ونصله !

١٤- عنترة وعبلة!

عنترة بن شداد العبسى بطل «حرب داحِسَ والغبراء » بلا مُدافع.

كان أبوه «شداد» من سادات عبس وشجعانها ، وكانت أمه جاريةً حبشيةً تسمى «زَبيبَةَ» .

وكان من تقاليد الجاهليِّين أن لا يُلحِقُوا أبناءهم من الجوارى بنسبهم ، إلا إذا شبوا ، وأبدوا شجاعة ، وبسالةً فذّة ، وإلا ظلوا عبيدًا أذلاء .

وكان عنترةُ أسود اللون ، فاجتمع عليه فى رأيهم ذُلان : ذل الأم ، وذل اللون الذى وَرِثَه عنها ، فتدرب على الحرب والفروسية ، دون أن يأبَه له أحد ! ، وأحب عبلة ابنة عمه حبا ملك عليه كل حواسه ، ولكنه عبد ، وهى حرة ... لن يستطيع إليها الصعود ، ولن تستطيع إليه النزول! وحدث أن أغارت بعض أحياء العرب على حيه ، فأصابوا منهم مَا أصابوا ، واستاقوا إبلاً لهم ، ولكن عنترة الذى لم يكن يُحْسِنُ فى نظر أبيه غير الحلاب والصَّرّ[1] - يثور لقومه فيكرّ عليهم ، ويبلى بلاء حسنا فى حرب عدوهم ، واستنقاذ الإبل من بين أيديهم ، ويلفتُ الأنظار إليه ، ويرغم الجميع على احترامه ، والاعتراف به !!

ويشجعه أبوه فيهتف به:يا عنترة كُرّ وأنت حر ، وكرَ عنترة حتى نال حريته!

لقد فرح له أبوه ، وألحقه بنسبه ، ورد عليه حريته ، فأصبح فى عداد الأحرار ، ومحا عن نفسه ذل ولادته ، وذل لونه ! وكان يُكِنُّ لعبلةَ ابنةَ عَمِّه مالك حبا ملك عليه أحاسيسه ، وملأ قلبه وعقله ، ولكنه لم يكن يجهر بهذا الحب لما هو عليه من العبودية !

فلما نال حريته تقدم إلى عمه يطلب يد ابنته عبلة ، ولكنه رفض طلبه ، فحزّ ذلك الرفض فى نفس عنترة ، ولكنه ظل مفتونا بها ، هائما ، أشد ما تكون الفتنه والهيام!

---

(١) الحِلابُ : حَلْب الناقة ونحوها مما يحلب ، أما الصَّرّ فقد كان من عادة العرب أن يصروا الناقة ونَحوها، أى يَشُدّوا ضرعها بخيط يشد فوق الضرع لئلا يرضعه الولد ، وهذا الخيط يسمى الصِّرار، وذلك العمل يسمى الصَّرّ ، وكان العبيد يقومون بالحلاب والصّر ، أما الكر والفر فمن شأن الأحرار.

وتفجر ينبوع الشعر على لسانه نبعا عذبا ، فاتخذه أداة للتعبير عن بطولته الحربية ، وحبه الظامئ لابنة عمه التى شغف بها، وفتن بجمالها وإثبات شخصيته لديها ، فيقول فى أحرج المواقف وأقسى الظروف :

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ
منِّى ، وبِيضُ الهند تقطُرُ من دمى ! [1]
فوددت تقبيلَ السيوفِ لأنها
لمعَتْ كبارقِ ثغرِك المتَبَسِّمِ

وهو لايكتفى بتقديم بطولته الحربية لصاحبته كى ترضى عنه ، وتبادله حبا بحب - فإنه يقدم لها بطولته النفسية ، والخلقية فيقول فى معلقته :

أَثْنِى علىّ بما علمتِ فإننى
سَمْحٌ مخالقتى إذا لَمْ أُظْلَمِ [2]
فإذا ظُلِمتُ فإن ظُلْمِىَ باسِلٌ [3]
مر مذاقته كطعم العلقم
هلّا سألت الخيل يابنة مالك
إن كنت جاهلةً بما لَم تَعْلَمِى

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقائعَ أننى
أَغْشى الوَغَى [4] وأعفّ عند المغنم

إن قصة عنترة هى قصة فارس الفوارس بطل قبيلة عَبْس وحامى ذِمارها .

✍ حب وصد:

لقد أحب عنترة عبلةَ حبا ملك عليه قلبه و حواسه ، فيقول :

يادارَ عبلة بالجِواءِ تكلّمى وعِمِى صباحًا - دارَ عَبلةَ - واسْلَمِى [5]

ولكن الحبيبة فيما يبدو لم ترحب بحب يحمله لها عبد أسود مشقوق الشفة!

---

(١) الرماح جمع رمح ، نواهل : تشرب من دمى حين تصيبنى ، وبيض الهند : كناية عن السيوف !
(٢) مخالقتى : معاشرتى . وفي بعض الروايات : مخالفتى.
(٣) الباسل : الكريه . (٤) الوغى : الحرب .
(٥) الجواء : الواسع من الأودية . وعمى صباحا : تحية عربية جاهلية ؛ دعاء لها بأن تنعم بصباحها.

ولم يصد جفاؤها عنترة ، بل لج فى هواها الذى استبد بقلبه ، وامتلك تفكيره .

وإذا كانت عبلة اكتفت بالجفاء المهذّب ، فإنّ أهلها رفضوا عنترة رفضا باتّا ، وزوجوا ابنتهم رجلا آخر ارتحل بها ؛ وكان هذا المسلك المهين لعنترة مُلهما إياه أن يكون ملء الأعين والأسماع ، وقد بلغ ما أراد ، يقول عنترة معاتبا :

عجبت عُبَيْلة من فتًى متبذّلِ[1]

عارى الأشاجع ، شاحبٍ كالمُنْصُلِ[2]

فتضاحكَتْ عجبا ، وقالت قولةً :

لا خيرَ فيك ، كأنمالم تَحْفُلِ[3]

فعجبت منها كيف زلّت عينُها

عن ماجد ، طلِق اليدين شَمَرْدَلِ

لا تصرمينى -ياعُبَيلُ- وراجعى [5]

فىءَ البصيرة نظرة المتأمّل

يا عبلُ كم من غَمْرَةٍ باشرتُها[6]

بالنفسِ ما كادت -لَعَمرُك- تنجلى! [7]

وعلى الرغم من هذا الصد ، وذاك الرفض ، فإن عنترة لم يصدّ عنها ، أو يحرمها مكانتها من قلبه ... مكانة الود والإكرم ، إنه يقول لها :

ولقد نزلْتِ- فلا تظنى غيره

- منّى بمنزلة المحبّ المكرَمِ

وظلت حياة عنترة مثلا فى الحب والشجاعة تنتقل على مدى الأيام من الخاصة إلى العامة محاطة بالتقدير والإعجاب والاحترام.

(١) عبيلة : تصغير عبلة ، وقد يدل التصغير على التمليح أحيانا وقد يدل على التحقير أحيانا أخرى ، ومتبذل : غير متزين ولا متجمل .

(٢) الأشاجع : عروق ظاهر الكف ، وعرى الأشاجع كناية عن نحافته وعدم تنعمه . ويفسره ما بعده : شاحب كالمُنصل : وهو السيف .

(٣) لم تحفل : لم تهتم .

(٤) الشمردل : الصبى الجلْد القوى ، وقالوا : جمل شمردل ، وناقة شمردلة لقوة سيرها .

(٥) لا تصرمينى : لا تقطعى وُدى ، والصّرم بفتح الصاد : القطع .

(٦) الغمرة : الشدة . (٧) لعَمْرك : قسم : وحياتك .

إنها قصة الشجاعة النادرة !

قصة القلب الذى شغفته عبلة حُبًّا !

ولكن ماذا يفعل عنترة؟

لقد وجد شفاء نفسه فى الحرب حيث يقول :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقْمهَا

قيل الفوارس : وَيكَ عنتَرَ أقدمِ (١)

وخرج من الحرب بطلا يتحدث ببطولته الرائح والغادى وإن كان قد خسر عبلة!

لقد رفع السيف عنترة إلى منزلة الفروسية ، وألهمته البطولة روائع من القول جعلته فى الصف الأول من شعراء الجاهلية ، وأحد أصحاب المعلقات ، وعلى كثرة الشعراء الفرسان فى تاريخ الشعر العربى يقف عنترة ثالث ثلاثة بلغوا فى الحرب والشعر منزلة فريدة، وكانت حياته امتزاجا بين هذين الجانبين ، وقسمة تكاد تكون متساويةً بين السيف والقلم .

---

(١) ويك : كلمة مركبة من (وى) وكاف الخطاب ، ووى تعجب ، كأنهم قالوا : عجبا لك يا عنترة ! أقدم .
أو هى مخففة من ويلك أو ويحك .

١٥ - قيس بن الملوح وليلى !

مجنون ليلى

جُن . بليلى ، وقد شغفها حُبّ قيس !

إنه مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق .

قال أبو عمرو الشيبانى ، وأبو عبيدة :

كان المجنون يهوَى ليلى بنت مهدى ، وتكنّى أم مالك وهما حينئذ صبيّان ، فعَلِقَ كلّ واحد منهما صاحبَه وهما يَرْعَيَان مواشى أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا ؛ فَحُجِبَتْ عنه ، قال: ويدل على ذلك قوله :

تعلقتُ ليلَى وهْىَ ذاتُ ذُؤابةٍ

ولم يبدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثديها حَجْمُ [١]

صغيرين نَرْعَى البَهْمَ ياليتَ اننا

إلى اليوم لم نَكبَرْ ، ولم تكبَرِ البَهْمُ [٢]

سبب عشق المجنون ليلى !

قالتْ : تشاغلتُ عنه ذات يوم بغيره ، وجعَلت تُعْرض عن حديثه ساعة ، وتحدّث غيره لتعرفَ مدى صدقه فى حبه ؛ فإذا وجهُه قد تغَير ، وإذا لونُه قد انْتُقِعَ ، وشق عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كِلانا مُظْهِرٌ للناسِ بُغْضًا وكلٌّ عِنْد صاحبِه مَكينُ

تُبَلِّغُنا العيونُ بما أردْنا وفى القلبين ثَمَّ هَوًى دَفينُ

فما سمع البيتين حتى شَهَق شهقَةً شديدةً ، وأُغمِىَ عليه ، فَمَكث على ذلك ساعة ، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق !، وتمكن حب كل واحد منهما فى قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ !

---

(١) الذُّؤابة : شعر الناصية .

(٢) البَهم (بفتح الباء) جمع بَهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر .

✍ خِطْبتُه ليلى واختيارها عليه غيره !

ويقول أبو الفرج الأصبهانى فى الجزء الثانى من الأغانى : لما شُهر أمر المجنون وليلى ، وتناشد الناسُ شعره فيها، خطبها ، وبذل لها خمسين ناقة حمراء!

وخطبها «ورد بن محمد العقيلىّ» ، وبذل لها عشرا من الإبل وراعيها، فقال أهلها : نحن مُخَيِّروها ؟ فمن اختارت تزوجته ، ودخلوا عليها فقالوا : والله لئن لم تختارى «وردًا» لنمثلن بك !

فقال المجنون :

ألا ياليلَ إنْ مُلِّكْتِ فينا خيارَك ، فانظرى لمن الخيار ؟!

فاختارت «وردًا» ، فتزوجته على كُرْهٍ منها .

وكان العرب لا يزوجون من تناول ابنتهم فى شعره ، وذاع حبه على كل لسان فأنشأ يقول :

عرضتُ على قلبى العَزاءَ فقال لى :

من الآنَ فاياس لا أعزّك من صبر!

إذا بان من تَهْوى . وأصبح نائيا

فلا شىءَ أجدى من حُلولك فى القَبْر! [1]

وهام على وجهه !

✍ وهكذا بلغ به العشق!

وبلغ العشق من مجنون بنى عامر أن أخرجه إلى الوسواس والهيمَان ، وذهاب العقل ، وكثرة الهذيان ، وهبوط الأودية وصعود الجبال ، والوطء على العَوْسَج [2] ، وحرارة الرمال ، وتمزيق الثياب ، واللعب بالتراب، والرمى بالأحجار ، والتفرد بالصحارى ، والاستيحاش من الناس ، والاستئناس بالوحش ، حتى كان لا يعقل عقلا ، فإذا ذكرت له ليلى ثاب إليه عقله ، وأفاق من غشيته ، وتجلت عنه غمرتُه ، وحدثهم عنها أصحّ الرجال عقلا ،

(١) بان : بعد . نائيا : بعيدًا . (٢) الشوك .

وأخلصُهم ذهنا ، لا ينكرون من حديثه شيئا ؛ فإذا قطع ذكرها رجع إلى وسواسه وهذيانه ، وتماديه فى ذهاب عقله .

وقد حكى عنه فى أول ابتداء وسواسه أنه قيل لأبيه : لو أخرجت قيسا أيام الموسم ، وأَمَرْتَه أن يتعلق بأستار الكعبة ، ويقول : «اللهم أرحنى من حب ليلى»، لعل الله كان يريحه من ذلك ففعل ، فلما طاف بالبيت أمره ، فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : اللهم زدنى لليلى حبًّا إلى حبها ، وأرنى وجهها فى خيرٍ وعافيةٍ، فضربه أبوه ، فأنشأ يقول :

ذكرتُكِ والحجيجُ له ضجيجُ ... بمكةَ والقلوبُ لها وَجيبُ (١)
فقلتُ ونحن فى بلد حرامٍ ... به لله أُخْلِصَتِ القلوبُ
أتوبُ إليك يارحمنُ مما ... عَمِلتُ فقد تَظاهرتِ الذنوبُ (٢)
وأمّا مِن هوى ليلَى وتركى ... زيارتَها ، فإنى لا أتوبُ
وكيف وعندها قلبى رهينٌ ... أتوب إليك منها أو أُنيب (٣) ؟!

وقال أيضا :

دعا المُحْرمون اللهَ يستغفرونه ... بمكَّةَ شُعْثًا ، كى تُمَحَّى ذُنوبُها
وقلت لربّ الناس : أوّلُ سُؤلتى ... لِنَفْسِىَ ليلى ثم أنت حسيبها (٤)
فإن أُعْطَ ليلى فى حياتىَ لايَتُبْ ... إلى الله عبدٌ توبةً لا أتوبُها

لقد ظل يدعو قائلا :

اللهم زِدنى لليلى حُبّا ، وبها كَلفًا ، ولا تُنْسِنى ذكرها أبدا ! ، ثم أنشد :

ياربّ لا تحرمَنّى حُبَّها أبدًا ... ويرحم الله عبدًا قال آمينا !!

وهام بعدها على وجهه فى البَرِّيَّة مع الوحش ، ولم يكن يأكل إلا ما يَنبتُ فى البرية من بقل ، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلَها ، وطال شعر جسده ورأسه ، وأَلفَتْه الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه .

وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام ، فإذا ثاب إليه عقله سأل من يمر به من أحياء العرب عن نجد ، فيقال له :

---

(١) وجيب : صوت واضطراب . ودقات عالية .
(٢) تظاهرت : كثرت .
(٣) أنيبُ : أرجع .
(٤) سؤلتى : سؤالى.

وأين أنت من نجد ؟! قد شارَفْتَ الشام ! أنت فى موضع كذا ، فيقول:

فأرونى وِجْهَة الطريق ، فيرحمونه ، ويعرضون عليه أن يحملوه أو يكسوه فيأبى إلا أن يدلوه على طريق نجد ، فيتوجه نحوه ! ويُحكى أنه لما زوجت ليلى بالرجل الثقفى سمع المجنون رجلا من قومها يقول لآخر : أنت ممن يشيّع ليلى؟ قال : ومتى تخرج قال : غدا ضَحْوَةً ، أو الليلة ، فبكى المجنون ثم قال :

كأن القلب ليلةَ قيل يُغْدَى ... بليلَى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتت ... تَجاذَبُه . وقد عَلِق الجناح [1]

سؤاله زوج ليلى عن عشرته معها !

وظل هائما على وجهه حتى مر بزوج ليلى ، وهو جالس يصطلى [2] فى يوم شاتٍ ، فوقف عليه ، ثم أنشأ يقول :

بربّك هل ضممْتَ إليكَ ليلَى
قُبَيْلَ الصُّبْحِ أو قَبَّلْتَ فاها
وهل رَفَّت عليك قُرون لَيْلَى
رفيفَ الأُقْحُوانةِ فى نَداها ؟! [3]

فقال زوجها : اللهم إذْ حَلَّفْتَنى ، فنعم .

قال : فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى سقط مغشيا عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته فقطعها ، فقام زوج ليلى مغمومًا بفعله ، متعجبا مما رآه منه !!

---

(١) عزها : غلبها . والقطاة كالحمامة .
(٢) يصطلى : يستدفئ .
(٣) القرون : الذوائب والضفائر ، ورفّت : لمعت ولألأت من رفيف الأقحوانة وهى البابونج والمراد: اهتزازها نضارة وحُسْنًا . هذا ، والعقل مناط التكليف والمؤاخذة !

مجنون ليلى وحمامَة تبكى إلْفَها:

بات «المجنونُ» فى بعض ليالى حَجّهِ تحت شجرة ، فانتبه بنَوْحِ حَمَامةٍ فأنشأ يقول :

لقد هتفت فى جُنحِ ليلٍ حَمامةٌ
على فَنَنٍ [1] تدعُو ؛ وإنى لَنَائمُ
فقلت - اعتذارًا عند ذاك ، وإننى
لِقَلْبىَ ، فيما قد رأيتُ لَلائمُ!
أَأَزْعُمُ أنّى عاشِقٌ ذُو صبابَةٍ
بِلَيْلَى ، ولا أبكى ، وتبكى الحمائمُ ؟!
كذبتُ - وبَيْتِ الله - لو كنتُ عاشِقًا
لما سبَقَتْنى بالبُكاءِ الحمائمُ!!

المجنون وشبه ليلى:

ومرّ المجنون برجلين قد صادا ظبية فربطاها بحبل ، وذهبا بها ، فلما نظر إليها ، وهى تركُض فى حبالها ، دمَعَتْ عيناه ، وقال لهما : حلاها ، وخُذا مكانها شاةً من غنمى ، فأعطاهما وحَلاّها ، فولت تعدو هاربَة !

وقال فيها وقد نظر إليها وهى تعدو أشدَّ عَدْوٍ هاربة مَذْعورة :

أيا شبهَ لَيلى لا تُراعِى فإننى
لك اليومَ من وَحْشِيَّةٍ لَصديقُ
ويا شبهَ ليلَى لو تَلَبَّثْتِ ساعةً
لعلّ فؤادى من جَواهُ يُفيقُ
تَفِرُّ وقد أطلقتُها من وَثاقِها
فأنت لِلَيلَى - لو عَلِمْتِ - طَليقُ

(١) فنن : غصن ، والجمع أفنان .

✍ اللّقاء الأخير !

ومر المجنون - بعد اختلاطه [1] - بليلى ، وهى تمشى فى ظاهر البيوت بعد فَقْدٍ طويل لها ، فلما رآها بكى حتى سقط على وجهه مغشيا عليه ، فانصرفت خوفا من أهلها أن يلقَوها عنده فمكث طويلا ، ثم أفاق !

وأنشأ يقول :

بكى فرحًا بليلَى إذْ رآها ... مُحِبٌّ لا يَرى حَسَنا سواها

لقد ظَفِرَت يداه ، وطاب عيشًا ... لئن كانت تراهُ كما يراها

وهكذا عاش المحبان على أمل اللقاء !

إن قصة قيس بن الملوح هى قصة المتيم المكبول الذى يقضى دهره أسيرا لهوى واحد إلى أن يصاب بالجنون ! . فهى قصة تمثل لونا من ألوان الحياة الغرامية يجذب إليه كُلّ المحبين !

✍ غزتنى جنود الحب !

وجاء فى الأغانى أن المجنون مر فى توحشه فصادف حَى ليلى راحلا ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشيا عليه !.

وأقبل فتيان من حى ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه ، وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة.

فرقت لما رأته به ، وقالت : أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ، ولكن يافلانة- لأمة لها - : اذهبى إلى قيس ، فقولى له : ليلى تقرأ عليك السلام ، وتقول لك: أعْزِزْ علىَّ بما أنت فيه ؛ ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى منه ، فمضت الوليدة إليه ، وأخبرته بقولها : فأفاق و جلس ، وقال : أبلغيها السلام ، وقولى لها : هيهات ! إن دائى و دوائى أنت ، وإن حياتى ووفاتى لفى يديك ، ولقد وكلت شقاء لازما ، وبلاء طويلا ، ثم بكى ، وأنشد يقول:

أقول لأصحابى : هى الشمس ضوءُها

قريب ، ولكن فى تناولها بُعْدُ

(١) ذهاب عقله .

لقد عارضَتْنَا الريحُ مِنْها بنَفْحَةٍ
على كبدى من طيبِ أرواحها بَرْدُ
فمازلتُ مَغْشِيًّا علىّ ، وقد مضت
أناةٌ ، وما عندى جوابٌ ولا ردّ

ولم يبقَ إلا الجِلْدُ والعظمُ عاريًا
ولاعَظْمَ لى - إن دام ما بى - ولا جِلْدُ
أدُنْيايَ مالى فى انقطاعى وغرْبَتى
إليك ثوا بٌ منك دَيْنَ ولا نَقْدُ
عِدينى ، بِنَفْسِيَ أنت ، وعداً ، فرُبَّمَا
جَلا كُربةَ المَكْرُوبِ عن قلبه الوعدُ
وقد يُبْتَلَى قوم ، ولاَ كَبَلِيَّتى
ولا مثلَ جَدِّى فى الشقاء بكم جَدّ [1]
غزتنى جنودُ الحَب من كلِّ جانبٍ
إذا حان من جندٍ قُفُولٌ أتى جُنْدُ [2]

(١) الجَد : الحظ . (٢) القفول : الرجوع .

١٦- قيس ولُبْنى!

هو قيس بن ذَريح ، كان رضيع الحسين بن على رضى الله عنهما ، أرضعته أم قيس بنت الذاهل بن عامر الخزاعى .

كان منزل قومه فى ظاهر المدينة أو فى «سَرِف» ، فمر قيس لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة ، فوقف على خيمة منها ، والحَىُّ خُلُوف [1]، والخيمة خيمة لبنى بنت الحباب الكلبية ، فاستَسْقَى ماء فسقته ، وخرجت إليه به ، وكانت امرأة مديدة القامة ، حلوة المنظر والكلام ، فلما رآها وقعت فى نفسه ، فقالت له : أتنزل فتَبْتَرِدُ عندنا ؟

قال : نعم ، وجاء أبوها ، فنحر له ، وأكرمه ، فانصرف قيس ، وفى قلبه من «لبنى» حَرٌّ لاينطفئ ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ، وصار على لسان الرائح والغادى .

ثم أتاها يوما آخر ، وقد اشتد وجده بها ، فسلّم فظهرت له ، واحتفت به ، فشكا إليها ما يجده ، وشكت إليه مثل ذلك فأطالت ، وعرف كل واحد ماله عند صاحبه ، فانصرف قيس إلى أبيه ، وأعلمه حاله ، وسأله أن يزوجه إياها ، فأبى عليه ، وقال : «يا بُنَىّ ، عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك !» .

وكان «ذَريح» كثير المال موسرا ، فأحب ألا يخرج إلى غريبة ، فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به !

فأتى إلى أمه فشكا إليها ، واستعان بها على أبيه ، فلم يجد عندها ما يحب !

فأتى الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - وابن أبى عتيق ، فشكا إليهما ما به ، وما رد عليه أبوه ، فقال له الحسين : «أنا أكفيك» .

فمشى معه إلى أبى لبنى ، فلما بَصُر به أعظَمَه ، وقال :

يابن بنت رسول الله ﷺ ، ما جاء بك ، ألاّ [2] بعثت إلىّ فآتيك ! قال : إن الذى جئت فيه يوجب قصدك .

وقد جئتك خاطبا ابنتك لُبْنى لقيس بن ذَريح .

(١) غائبون متخلفون . (٢) ألاّ مثل هلاّ .

فقال : يابن بنت رسول الله ، ما كنا لِنعْصىَ لك أمرا ، وما بنا رغبةٌ عن الفتى[1] ، ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها أبوه ذَريح ، وأن يكون ذلك عن أمره فإنى أخاف إن لم يَسَعْ أبوه فى هذا أن يكون عارًا وسُبَّةً علينا !

فأتى الحسين - رضى الله عنه - ذريحا وقومه ، وهم مجتمعون فقال لذريح : أقسمت عليك إلا خطبت لُبْنَى لابنك قيس ؛ قال : السمع والطاعة لأمرك !

فخرج معه فى وجوه من قومه ، حتى أتوا لبنى ، فخطبها ذَريح على ابنه إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وزُفَّتْ إليه بعد ذلك ! فأقامت معه مدة لايُنْكِرُ أحد من صاحبه شيئا .

وكان قيس أبرَّ الناس بأمه ، فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك ! فوجِدَت[2] أمه فى نفسها ، وقالت :

لقد شغلت هذه المرأة ابنى عن بِرّى ! ، ولم تر للكلام فى ذلك موضعا حتى مرض قيس مرضا شديدًا ؛ فلما بَرأ من علته قالت أمه لأبيه :

لقد خشيت أن نُفْجعَ فى قيس ، وما يترك خلفًا ، وقد حرم الولد من هذه المرأة ، وأنت ذو مال ، فمن يرثه ؟!

فزَوِّجْه بغيرها لعل الله يرزقُه ولدا ، وألحت عليه فى ذلك فأمهل ذريح قيسا حتى إذا اجتمع قومه دعاه ، وقال :

ياقيس ، إنك اعتللت هذه العلة ، فخفت عليك ، ولا ولد لك ، ولا لى سواك، وهذه المرأة ليست بِوَلُود ، فتزوج إحدى بنات عمك لعل اللهَ يهب لك ولدا تَقَرُّ به عينُك وأعينُنا .

فقال قيس : لَسْتُ متزوجًا غيرها أبدًا .

فقال له أبوه : فإن فى مالى سعة ، فاتَّخِذْ جارية سَرِّيَّة لك تكون أم ولد .

قال : ولا والله لا أسوؤها بشىء !

---

(١) رغبة عنه : انصراف وعدول . (٢) حزنت .

قال أبوه : لا أرضى أو تطلقها ، وحلف لا يكنه سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى !

فكان يخرج ، فيقف فى حَرِّ الشمس ، ويجىء قيس فيقف إلى جنبه فُيظلّه بردائه و يصْلَى هو بحر الشمس حتى يفىء الفىء فينصرف عنه ، ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ، ويبكى ، وتبكى معه !

ويقال : إنه مكث كذلك سنة حتى طلقها .

قال أبو الفرج : قال الحسين بن على رضى الله عنهما لذريح أبى قيس : أَحِلٌّ لك أن فرقت بين قيس ولبنى ؟!

أما إنى سمعت عمر بن الخطاب يقول : «ما أبالى أفرقت بين الرجل وامرأته ، أو مشيت إليهما بالسيف» .

قالوا : فلما بانت لبنى بالطلاق ، لم يلبث قيس حتى استطير عقله ، وذُهب به ، ولحقه مثلُ الجنون ، وتذكر لبنى وحالها معه ، فأسف وجعل يبكى وينشج أحر نشيج !

وأرسلت لبنى إلى أبيها ليَحْتَمِلَها ، وقيل بل أقامت حتى انقضت عدتها .

وأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها ، فلما عَلِم بذلك قيس أقبل ليُلِمَّ بخباء لبنى وسألها عن رحيلها ، فمنعه قومها ، فأقبلت عليه امرأة من قومه ، فقالت له :

«ويحك ! تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل ، هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا» !

فسقط مغشيا عليه لايعقل !

قال أبو الفرج : فلما ارتحل قومها اتبعها مَلِيًّا ، ثم علم أن أباها سيمنعه ، فوقف ينظر إليها ،ويبكى حتى غابوا ، فكر راجعا ، ونظر إلى خُفِّ بعيرها ، فأَكَبّ عليه يقبله ، ورجع يقبل موضع مجلسها ، وأثر قدمها قائلا :

وما أحببتُ أرضكمُ ولكن أقبّل إثرَ مَن وطئ الترابا

فلما جَنَّ الليل ، وانفرد ، وأوى إلى مضجعه لم يغمض له جفن ، وظل يتقلب

فى فراشه ، ويتململ كالملدوغ ، ثم وثب حتى اتى موضع خبائها ، فجعل يتمرغ فيه ويبكى ، ويقول :

بِتّ والهَمّ يا لُبَيْنى ضجيعى
وجَرَت مُذْ نأيت عَنّى دُموعِى
وتنفستُ إذ ذكرتُك حَتّى
زالتِ اليومَ عن فؤادى ضلوعى
يالبَيْنى فَدَتْك نَفْسِى وأهلى
هل لدهرٍ مضىٰ لنا من رجُوعِ ؟!.

✍ ماذا كان مصير قيس ؟

هناك أقوال كثيرة :

* قالوا : جعل قيس يعاتب نفسه فى طاعته أباه فى طلاق لبنى ، ويقول لنفسه :

هلا رحلت بها عن بلده ، فلم أر ما يفعل ، ولم يرنى ، فكان إذا فقدنى أقلع عما يفعله .

وإذا فقدته لم أتحرج من فعله ، وما كان علىّ لو اعتزلته فأقمت فى حيها ، أو فى بعض بوادى العرب ، أو عصيته . فلم أطِعْه؟! هذه جنايتى على نفسى، فلا لوم على أحد ، وكلما قَرّع نفسه ، وأنّبها بلونٍ من التأنيب بكى أمر بكاء ، والصق خدّه بالأرض :

* وقالوا : فلما طال على قيس ما به ، أشار قومه على أبيه أن يزوجه امرأة جميلة ، فلعله يسلو بها عن لبنى : ، فدعاه إلى ذلك ، فأبى ، فأقسم عليه أبوه أن يسير وينتقل فى أحياء العرب ؛ فلعل عينه تقع على امرأة تعجبه ، ففعل حتى نَزَل بحى من فزارة ، فرأى جارية حسناء ، قد حسرت برقع خَزٍّ عن وجهها ، وهى كالبدر ليلة تمامه ، فقال لها : ما اسمك ؟

قالت : «لبنى» فسقط على وجهه مغشيا عليه :

فارتاعت لما عراه وأصابه ، وقالت :

«إن لم يكن هذا قيس بن ذَريح إنه لمجنون» .

ثم أقبل أخ لها فعرض عليه الصهر ، فقال : ياهذا إن فيك لرغبة ، ولكنى فى شغل لاينتفع بى معه» .

فلم يزل يعاوده حتى أجابه ، وشخص قيس إلى أبيه وساق إليهم المهر ، ثم رجع إلى الفزاريين حتى أدخلت عليه زوجته ؛ فلم يروه هَشَّ إليها ، ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ، ولا نظر إليها ، وأقام على ذلك أياما كثيرة ، ثم خرج إلى قومه بالمدينة ، فأخبره صديق له من الأنصار أن نبأ زواجه بلغ لبنى فغمها وقالت: «إنه لَغَدّار ، ولقد كنت أمتنع عن إجابة قومى إلى التزويج ، فأنا الآن أجيبهم» .

وقد كان أبوها شكا قيسا إلى «معاوية» وأعلمه تعرضه لها بعد الطلاق ، فكتب إلى «مروان بن الحكم» أو «سعيد بن العاص» يهدر دمه إن تعرض لها ، وأمر أباها أن يزوجها رجلا من آل كثير بن الصَّلتْ الكِندى حليف قريش .

وقالوا : إن قيسا اقتطع قطعة من إبله ، وأعلم أباه أنه يريد المدينة ليبيعها ويمتار[1] لأهله بثمنها ، فعرف أبوه أنه إنما يريد «لُبنى» ؛ فعاتبه ، ، وزجره عن ذلك ، فلم يقبل منه ، وأخذ إبله ، فأتى بها المدينة ، فبينا هو يعرضها إذ ساومه زوج لبنى بناقة منها ، وهما لا يتعارفان ، فباعه إياها ، فقال له : إذا كان غد فأتنى فى دار كثير بن الصلت، فاقبض الثمن .

قال : نعم .

ومضى زوج لبنى إليها ، وقال لها : «إنى ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية ، وهو يأتينا غدا ، فأعدى له طعامًا» ففعلت ، فلما كان من الغد جاء قيس فصوت بالخادم «قولى لسيدك : صاحب الناقة بالباب» .

فعرفت لبنى نغمته ، فلم تقل شيئا ، فقال زوجها للخادم ، قولى له : ادخل . فدخل وحين سمع صوتها عرفها ، فبهت قيس ساعة لا يتكلم . ثم انفجر باكيا، ونهض فخرج ، فدست له لبنى بعد خروجه رسولا يسأله : «لِمَ تزوج بعدها»؟!

(١) يمتار : يشترى الميرة والطعام وحاجات البيت .

فحلف له قيس أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التى تزوجها ، وأنه لو رآها فى نسوةٍ ما عرفها ؛ وأنه ما مد إليها يده ولا كلمها ، ولا كشف لها عن ثوب ؛

وشهر أمر قيس بالمدينة بعد لقائه لبنى ، فلم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بشعره فيها ، وحزن لقيس مما به ، وجاء لبنى زوجها ، فأنبها على ذلك ، فغضبت ، وقالت : لقد علمت أنى كنت زوجته قبلك ، وأنه أكره على طلاقى ، والله ما قبلت التزويج حتى أهدر دمه إن ألَمّ بنا ؛ وطاف بحينا ؛

* قالوا : وارتحل قيس إلى «معاوية» فدخل إلى «يزيد» فشكا ما به ، وامتدحه ، فرق له وقال : «سل ما شئت» فقال «أحب أن أقيم بحيث تقيم فى البلاد ، أتعرف أخبارها وأقنع بذلك من غير أن يهدر دمى» ؛

فأجابه إلى ذلك ، وأزال ما كان كتب به أبوه فى إهدار دمه ؛

✍ النهاية:

قال أبو الفرج : قالوا : وقد اختلف فى آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما ؛

١٧ - كُثَيِّر وعَزَّة

كُثَيِّر بن عبد الرحمن أحد عشاق العرب المشهورين .

وهو صاحب عزة بنت جميل .

وله معها حكايات ونوادر ، وأمور مشهورة ، وأكثر شعره فيها .

وكُثَيِّر: تصغير كَثِير ، وإنما صُغِّر لأنه كان شديد القِصَر ، وكان إذا دخل على «عبد العزيز بن مروان» يقول له : «طأطئ رأسَك لِئَلاَّ يؤذيك السقف» يمازحه بذلك .

وقال بعضهم رأيت كُثَيِّرًا يطوف بالبيت ، فمن أخبرك أن طوله كان أكثر من ثلاثة أشبار فقد كذب !

كان كثير قصيرا ، وكان أعور !

والقِصَر والعوَر عيبان فظيعان فى البيئات التى يغلب عليها البداوة ؛ ولذا نراه يدافع عن قِصَرِه قائلا :

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه
وفى أثوابه أَسَدٌ هَصُورُ (١)

فما عِظَمُ الرجال لهم بَزِين
ولكِنْ زَيْنُهُم كَرمٌ وخِيرُ (٢)

وكان قد امتحن بهوى عزة بنت جميل ، وهناك من يزعم أنه لم يكن صادقا فى حبه . ولكن حبه قد صار حقيقة من الحقائق الأدبية التى لايملك الباحث إغفالها حين يتحدث عن حياته الأدبية والشعرية ، وصارت تنتقل من جيل إلى جيل ، وأضيف كُثَيِّر إلى عزة كما أضيف جميل إلى بثينة !

ولقد زار كثير مصر لينتفع بصلات عبد العزيز بن مروان الذى أطال فيه المديح .

---

(١) الهصور : الأسد . هصره هصرًا : كسره وافترسه .
(٢) الخير : بكسر الخاء : الكرم ، والشرف ، والأصل .

قال الراوى :

وحين اشتد شوقه إلى عزة خرج إليها بالمدينة فصادفها فى الطريق قادمة إلى مصر لتراه ، ولتنعم بلقياه :

ويعاتبها وتعاتبه ، ويفترقان متغاضبين هو إلى المدينة ، وهى إلى مصر .

ثم عز عليه أن يفارق بلدا فيه هواه ، فرجع إلى مصر ، ولكنه لسوء حظه ، وجد الناس ينصرفون من جنازة عزة ، فأتى قبرها ، وأناخ راحلته عندها ، ومكث ساعة ثم رحل إلى المدينة وهو يُنْشد:

أقــول - ونِضْــوى عند قــبــرهـا

عليكِ سلام اللهِ ، والعين تَسفَحُ [1]

وقـد كنتُ أبكى من فـراقكِ حَيَّةً

فـأنت لعـمـرى اليـومَ أنْأى وأنزحُ [2]

هذا ، ويروى أنه كان لكثير غلام عطار بالمدينة ، وربما باع نساء العرب بالنَّسيئَة [3] ؛ فأعطى «عزة» - وهو لا يعرفها - شيئا من العطر ، فمطلته أياما ، وحضرت إلى حانوته فى نسوة فطالبها ، فقالت له : حُبًا وكرامة ، ما أقرب الوفاء و أسرعه : ، فأنشد متمثلا :

قـضى كلُّ ذى دَينٍ فـوفّى غـريمه

وعَـزَّةُ ممطولٌ مُـعَنًى غَـريمُهَـا

فقالت النسوة: أتدرى من غريمتُك ؟ فقال : لا والله ؛ فقلن : هى - والله - عزة . فقال :

أشهدكن أنها فى حِلٍّ مما لى قِبَلَها ، ثم مضى إلى سيده فأخبره بذلك ، فقال كثير :

وأنا أُشْهِدُ الله أنك حُرّ لوجهه ، ووهبه جميع ما فى حانوت العطر ، فكان ذلك من عجائب الاتفاق :

---

(١) ونضوى : جسمى المهزول .

(٢) أنأى : أشد نايا وبعدا ، وأشد نزوحا . (٣) بالأجل .

كثيّر يُعَانِى من مِطَالِها

ولكُثَيِّر فى مِطالها بالوعد شعر كَثير ، فمن ذلك قوله :

أقـول لهـا : عُـزَيزَ مَطَلْتِ دَيْنى

وشَـرُّ الغَـانِيـاتِ [1] ذوُو المِطالِ

فقالت : ويح غيرِك كيف أقضى

غـــــريمًا ذهبت له بمـال ؟!

دفاعه عن نفسه ؟

وتعصر قلبه اللوعة ، وينغص عليه حياته ما كان بينهما من بعد ، فيقول :

أيادى سَبَا [2] ياعزّ ما كنتُ بعدَكم

فلم يحلُ للعـينين بعـدكِ مَنْظَرُ

وقـد زعَـمَتْ أنى تَغَـيَّـرْت بَعْـدَها

ومن ذا الذى ياعَـزُّ لا يتـغـيّـرُ

تَغَيّر جسْمِى والخليقـةُ كالذى

عَهدتِ ، ولم يُخْبَرْ بسِرِّكِ مُخبِر

إن أحلام قلبه قد تفرقت كما تفرق أهل سبأ بعد تضعضع سَدٍّ مأرب .

وإنّ جسمه قد تغير ، وإن الخليقة قد تغيرت ، ولكن قلبه الكتوم باق على عهده .

حلاوة حديثها

ولقد بلغ الغايةَ فى وصف حلاوة الحديث حين يقول :

من الخَفِرات [3] البيضِ وَدّ جليسُها

إذا مـا انقـضت أُحـدوثةٌ لو تُعـيـدُها

---

(١) الغانيات : اللاتى استغنين بجمالهن عن الزينة .

(٢) هذا مثل يضرب فى التفرق والتشتت ، يقال : «تفرقوا أيادى سبأ» .

(٣) الخفِرات : الحَيِيَّات .

لا شىء عنده يعدل الحب !

إنه يقول :

نظرت إليـهـا نظرةً مـا يسـرنى

بهـا حُمْـرُ أنعـامٍ [1] البلاد وسُودُها

لَوْعَة تُثيرُ الإشفاق

ولوعة كثير فى العشق لوعة تثير الإشفاق ، ولْنَنْظر إليه كيف يقول:

أَمُنْقَطِعٌ ياعَـزّ مـا كـان بيننا

وشَاجَرنى ياعزّ فيك الشَّواجرُ

إذا قـيل : هذا بيتُ عَـزَّةَ قـادنى

إليه الهوى ، واستعجلتنى البوادِرُ

أَصُدُّ وبى مثل الجنون لكى يرى

رواةُ الخَنَا [2] أنىّ لِبيْتكِ هَاجِـرُ ؟

ألا ليت حَظّى منكِ ياعَـزّ أننى

إذا بِنْتِ [3] باع الصبرَ لى عنك تاجرُ

ويقول الواقدى :

ولقد مات عكرمة مولى ابن عباس ، وكثير عزة فى يوم واحد سنة خمس ومئة ، فرأيتهما جميعا صلى عليهما فى موضع واحد بعد الظهر ، فقال الناس: «مات أفقه الناس و أشعر الناس!!»

وكان موتهما بالمدينة!

كُثَيِّر وعمياء تجيد نقد الشعر

حكى أن «كثير عزة» كان مارًّا ذات يوم ، فإذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى على غير هدى ، فقال لها : تنحَّىْ [4] عن الطريق .

---

(١) يضرب المثل بحُمْر النّعم (الجمال) فى حسن المنزلة عند العرب .

(٢) الخنا : الفحش فى الكلام . (٣) بنت : بعدت . (٤) تنحّى : ابتعدى .

فقالت له : ويْحَك ! ومن تكون ؟

فقال : أنا كثير عزة !

قالت له : قَبّحك اللهُ ! وهل مثلك يُتَنَحَّى له عن الطريق ؟!

فقال لها : ولِمَ ؟

قالت له : ألست القائل :

وما روضة بالحَزْن [1] طيبة الثَّرَى

يَمُجّ النَّدى جَثْجَاثُها وعَرارُها

بأطيب من أردانِ [2] عَـزَّةَ مَـوْهنًا

إذا أُوقـدت بالمجْـمَـرِ اللَّدْنِ نارُها

ويحك ياهذا !

لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ، ومثل أمك لطاب ريحها !

هلا قلت مثل سيدك امرئ القيس :

وكنت إذا مـا جـئت بالليل طارقًا

وجدْتُ بها طِيبًا وإن لَم تطَيَّبِ ؟!

فخجل كُثَيِّر ، ولم يردّ جوابا !

✍ عزّة وبثينة عند عبد الملك بن مروان !

دخلت «بثينة وعزة» على «عبد الملك بن مروان» ، فاتجه إلى عزة وقال :

أنت عَزَّة كُثَيِّر ؟

قالت : لست لكثير بعزة [3] ، لكنى أُمُّ بكر .

---

(١) الحزن : ضد السهل - يمج الندى : يقذف ويرمى - الجثجاث : نبات طيب الرائحة - العَرار: النرجس البرى ، وهو نبات طيب االرائحة .

(٢) الأردان : جمع ردن ، وهو الجزء الواسع من الكم . موهنا : نصف الليل - ومعناه فى الليل - المجمر: ما يوضع فيه الجمر ، والعود نفسه الذى يوضع فى النار ليتطيب به . إنه يقول : ليست تلك الروضة ذات الأزهار الفواحة بأطيب مما ينبعث من عزة ليلاً حين تتصاعد رائحة البخور .

(٣) لست لكثير بعزة : تستنكف أن يكون كثير عاشقها .

قال: أتروين قول كثير :

وقد زَعَمَتْ أنّى تغيرتُ بَعْدَهَا

ومَنْ ذَا الذى ياعَزّ لا يتَغَيَّرُ ؟!

فقالت : لست أروى هذا ، ولكنى أروى قوله :

كأنّى أُنادِى أَوْ أُكَلّم صخرةً

من الصُمْ ، لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلّت [1]

ثم اتجه إلى بثينة فقال :

أنت بثينة جَميل ؟

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين !

قال : ما الذى رأى فيك جميل حتى لهج [2] بذكرك من بين نساء العالمين ؟

قالت : الذى رأى الناس فيك ، فجعلوك خليفتهم !

قال : فضحك «عبد الملك» ، وسره جوابها ، وفضلها على عزة فى الجائزة ، ثم أمرهما أنْ يدخلا على عاتكة ، فدخلتا عليها ، فقالت لعزة .

أخبرينى عن قول كثير :

قَضَى كُلُّ ذِى دَيْن فوَفّى غَريمَه

وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعنّى غَريمُها [3]

ما كان دينه ؟ وما كنت وعدتيه ؟

قالت : كنت وعدْتُه قُبلة ، ثم تأثمت [4] منها .

قالت عاتكة : وددت أنك فعلت ، وأنا كنت تحملت إثمها عنك .

ثم ندمت عاتكة ، واستغفرت اللّه تعالى ، وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة ! ، فإنه لا تزر وازرة وزرأخرى .

---

(١) العصم : جمع أعصم ، وهو الغزال فى يده بياض وسواد .أى : هى صخرة ملساء صَمّاء !

(٢) لهج بالشىء : أغرى به فثابر عليه .

(٣) وفّى غريمه : أدى ما عليه لدائنه ، وعزة دائمة التسويف لاتفى بما عليها لغريمها .

(٤) تأثّمت : تحرَّجتُ ، وخِفْتُ الإثم .

١٨- مُزاحم ومحبوبته ليلى

مُزاحم العُقيلى بدوى شاعر فصيح إسلامى صاحب قَصيدٍ ورَجَز ، كان فى زمن جرير والفرزدق ، وكان جرير يصفه ، ويقرّظه ، ويقدمه .

* وذكر صاحب الأغانى أن عبد الملك بن مروان قال لجرير : يا أبا حَزْرَة ، هل تحب أن يكون لك بشىء من شعرك شىءٌ من شعر غيرك ؟

قال : لا ، ما أحب ذلك ، إلا أن غلاما ينزل الروضات من بلاد بنى عقيل ، يقال له : «مزاحم العقيلى» ، يقول حسنا من الشعر لايقدر أحد أن يقول مثله ، كنت أحب أن يكون لى بعض شعره مقايضة ببعض شعرى !

* وكان جرير يقول : ما من بيتين كنت أحب أن أكون سَبَقْتُ إليهما غير بيتين من قول مزاحم العقيلى وهما .

وَدِدْتُ على ما كان من سَرَف الهوى
وغَىِّ الأمانى أنّ ما شِئْتُ يُفْعَلُ
فتَرجِع أيامٌ مَضَيْن ولَذَّةٌ
تَوَلّت ، وهل يُثْنَى من العَيشِ أوّلُ !

قال المفضل : سَرَفُ الهوى : خطؤه !

✍ قصة حبه

كان مزاحم العقيلى خطب ابنة عم له ، فمنعه أهلها لإملاقه ، وقلة ماله ، وانتظروا بها رجلا موسرا فى قومها كان يذكرها ولكنه كان غائبا ، فبلغ ذلك مزاحما ، فقال لعمه :

ياعمّ ، أتَقطع رحمى ، وتختار علىَّ غيرى لفضل أبَاعِرَ [1] تحوزها ، وطفيف من الحظ تحظى به ؟! قد علمت أنى أقرب إليك من خاطبها الذى تريده ، وأفصح منه لسانا ، وأجود كفًّا ، وأمنع جانبا ، وأغنى عن العشيرة !

فقال : لاعليك ، فإنها إليك صائرة ، وإنما أعلل أمها بهذا ، ثم يكون أمرها

(١) الأباعر : جمع بعير ، وفضلها : مازاد منها على غيره .

لك ، فوثق به ، وأقاموا مُدّة ، ثم ارتحلوا ومزاحم غائب ، وعاد الرجل الغائب ، فرغب فيها ، فزوجوه إياها ، فبلغ ذلك مزاحما ، فأنشأ يقول :

خليليّ هل من حِيلةٍ تعلمانِها
يُقَرّبُ من ليلَى إلينا احتيالُها
هنيئًا لليلى مُهجَةٌ ظَفِرتْ بها
وتزويجُ ليلَى حين حانَ ارتحالُها

* ويقول أبو الفرج :

كان «مزاحم العقيلى» يهوى امرأة من قومه يقال لها : «ليلى» فغاب غيبة من بلاده ، ثم عاد ، وقد زُوّجت ، فقال فى ذلك :

أتانى بظَهْرِ الغيب أن قد تَزَوّجَتْ
فَظَلّت بىَ الأرضُ الفَضَاءُ تدورُ
وزَايَلَنِى لُبّى وقد كان حاضرًا
وكاد جَنَانى عند ذاك يَطيرُ [1]
فقلت - وقد أيقنت أن ليس بيننا
تلاقٍ ، وعينى بالدموع تمورُ
أيا سرعَةَ الأخْبارِ حين تزوّجَتْ
فهل يَأْتِيَنّى بالطلاق بشيرُ؟ [2]
لها فى سوادِ القلبِ تسعةُ أسهم
وللناس طُرًا من هَوايَ عشيرُ [3]

ويطلب من قلبه الذى لج هائما بليلى أن يُفيق فيقول :

ألا أيها القلبُ الذى لَجّ هائما
وليدًا بليلَى لم تُقطّع تَمَائِمه [4]

لقد أتاه هواها قبل أن يعرف الهوى فعاشت فى قلب لا تفارقه !

---

(١) زايلنى : فارقنى ، وغاب عنى . ولُبّى : عقلي وكذلك جَنانى بفتح الجيم .
(٢) نهى الإسلام عن أن يتمنى الرجل طلاق امرأة من زوجها ليتزوج بها هو .
(٣) عشير : أى جزء من العشرة.
(٤) التمائم جمع تميمة ، ما يعلق فى العنق لدفع العين كناية عن حبه المبكر .

١٩- نصيب وصاحبته زينب

هو أبو مِحْجَن نُصَيْب الشهير بالشاعر «الزنجى» .

وصاحبته أم بكر «زينب» بنت صفوان .

وكان نُصَيْب يرعى إبلا لمولاه .

وكان رعاة مولاه تخالط رعاة صفوان .

وكانت زينب تأتى إلى رُعاة أبيها فتأخذ لبنا .

وكان نصيب حاذقا حسن التأمل فى دقائق المحاسن ، ولطائف الشمائل ، و«زينب» فى أرفع المراتب مما شغل باله ، وغير حاله :

وجرى الشعر على لسانه ، وفشا ، فأتت العرب مولاه ، فقالت :

إن عبدك هذا قد برع فى الشعر ، ونخشى أن يهجو أحدَنا ، أو يُشَبِّبَ [1] بنسائنا ، فقال له مولاه :

إنى بائعك فانظر لنفسك ، فأقبل حتى دخل على الأمير ، وهو يومئذ : «عبد العزيز بن مروان» ، فأنشده :

لعبد العزيز على عِتْرته ... وغيرهم مِنَنٌ ظاهرْه
فبابُك أسهلُ أبوابهم ... ودارُكَ مأهولةٌ عامرْه
وكلبُك آلفُ بالزائرين ... مِنَ الأمّ بالابنةِ الزَّائرة
وكفُّك حين ترى السائلين ... لأَثْرى من الليلة الماطِرهْ
فمنك العطاء ومنا الثناء ... بكلِّ مُحَبَّرَةٍ [2] سَائِرَهْ

فأمر له بألف دينار ، فقال :

أصلحك الله : إنى عبد لا آخذ الجوائز ، ولكن أباع فقال لخادمه : امضِ به فى السوق إلى باب الجامع فإذا انتهت الرغبات [3] فيه فأخبرنى :

---

(١) يتغزل فيهن . (٢) المُحبرة : القصيدة . (٣) آخر سعر له .

فمضى فلما نودى عليه بذل فيه شخص خمسين دينارًا، فقال نُصَيْب: قولوا لهم : إنه يحسن برى القِسِيِّ[1] ، وإراشة السهام وحجز الأوتار ، وقول الأشعار!

فمازالوا به حتى انتهى إلى ألف دينار ، فأخذه الأمير فكان فى خدمته إلى أن توفى ، فأوصى به سليمان بعد أن أعتقه ، فكان من أكبر سُمَّارِه ، وكان يلهج بالعشق . فسأله سليمان ، فأخبره أنه تعلق بجارية فى كنانة . ومنعه منها حَسَبُه ، وحقارة نسبه ؛ فكان يجلس فى ممرها ليخالسها النظر ، وفى ذلك يقول :

جلست لها كيما تَمُرَّ لعلنى
أُخَالِسُها التسليم إن لَم تُسَلِّم
فلما راتنى والوُشاةُ تحدَّرت
مدامِعُها خوفًا ولم تتكلّم
مساكينُ أهل العشق ما كنت أشترى
حياة جميع العاشقين بدرهم

* وعندما توفى من كان يمنعها كتب إليها :

فإن أكُ حالكًا فالمسكُ لونى
وما لسوادِ جلدىَ من دواءِ
وبى كرمٌ عن الفحشاء ناء
كبُعد الأرضِ عن جوّ السماء
ومثلى فى رجالكم قليلٌ
ومثلى لا يُرَدّ عن النِّسَاءِ
فإن ترضَىْ فرُدّى قول راضٍ
وإنْ تَأْبَىْ فنحن على السواءِ

---

(١) إنه يجيد صناعة أقواس الرمى والسهام .
فالأقواس تبرى . والسهام تراش بريش يساعدها على الانطلاق إلى مسافات أبعد . ويقال : أعط القوس باريها : كِل الأمر لصاحبه .

فقالت : المال والعقل يغطيان غيرهما لو تزوجتنى . ويقال: إنها توفيت قبله فبكاها قائلا :

أيادهرُ مـــا هذا لنَا مِنْك مَـــرّةً
عَثَرْتَ ، فأقْصيْتَ الحبيب المُحَبَّبَا
وابدلْتَنِى مـن لا أُحِبُّ دُنُوّه
وأَسْقَيْتنى صابا [1] من العَذْب مَشْرَبَا

وهو الذى شقى بحبه حتى رضيت عنه محبوبته فيقول :

وما فى الأرض أشقى من مُحِبٍّ
وإن وَجَـــد الهـــوى حُلْوَ المذاقِ
تراهُ باكـــيًـــا أبدًا حـــزينًا
مَـخَـافَـةَ فُـرقـةٍ أولاشـتـيـاقِ
فـيـبكى إن نَأَوْا شـوقًـا إليـهم
ويبكى إنْ دَنَوْا خـــوفَ الفِـــراقِ
فـتَـسـخُنُ عـينهُ عند التنائى
وتسـخن عـينهُ عند التّـلاقى [2]

وبعد .. فقد كانت هذه «أشهر قصص العشاق والمتيّمين» نقلتنا إلى عالمهم، وحلّقت بنا في آفاقهم ، فعايشناهم وإذا بنا نشاركهم أسمى العواطف الإنسانية في عالم طغت عليه المادية : فتعال إلى «أعجب قصص الحب» .

❀❀❀❀❀

(١) الصاب : شجر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة :
(٢) التنائى : عكس التلاقى . فى الأول بعد ، وفى الثانى قرب .

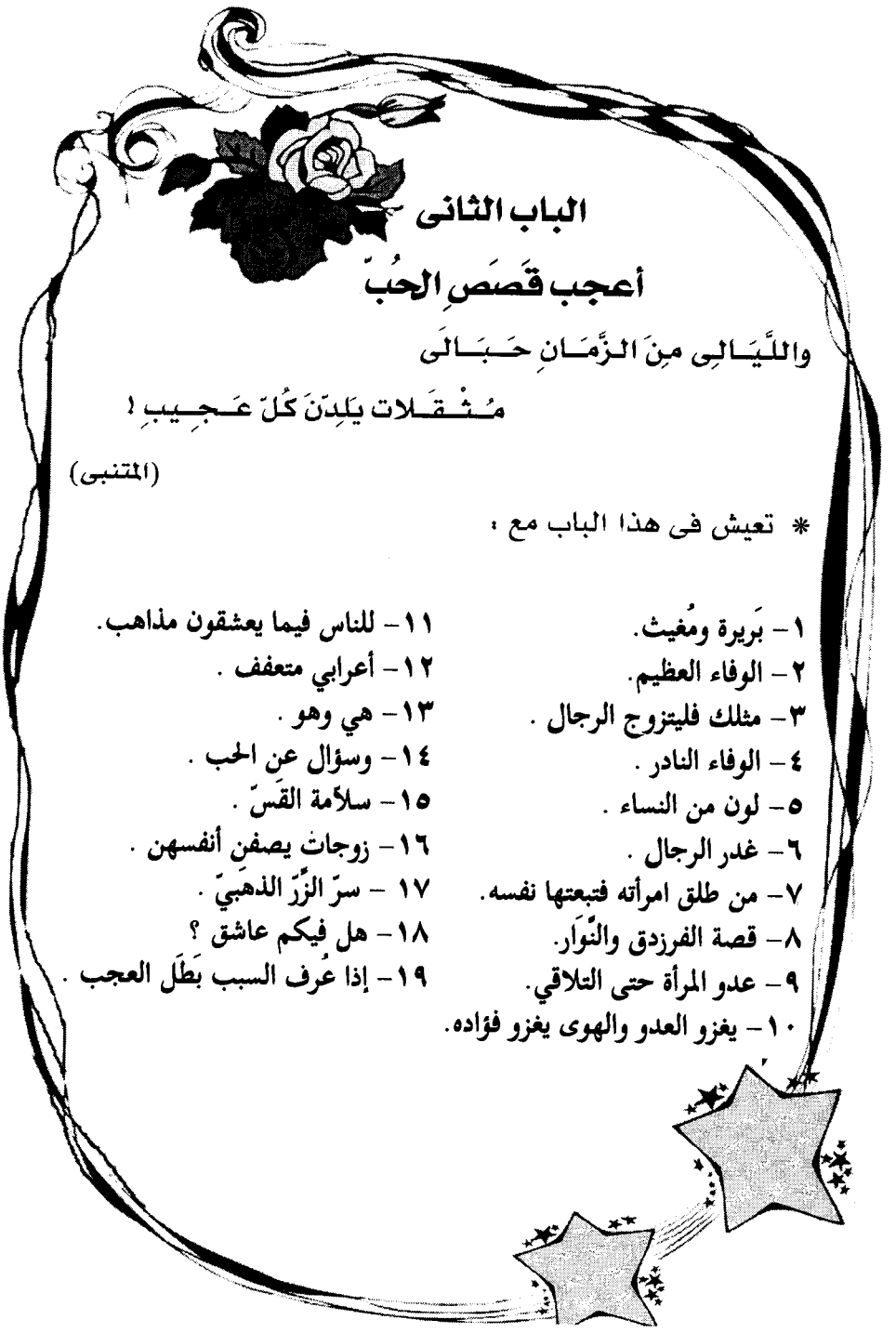

الباب الثانى

أعجب قَصَصِ الحُبّ

واللَّيَـالِى مِنَ الـزَّمَـانِ حَـبَـالَى

مُـثْـقَـلات يَلِدْنَ كُلّ عَـجِـيبِ !

(المتنبى)

* تعيش فى هذا الباب مع :

١- بَريرة ومُغيث.
٢- الوفاء العظيم.
٣- مثلك فليتزوج الرجال .
٤- الوفاء النادر .
٥- لون من النساء .
٦- غدر الرجال .
٧- من طلق امرأته فتبعتها نفسه.
٨- قصة الفرزدق والنَّوَار.
٩- عدو المرأة حتى التلاقي.
١٠- يغزو العدو والهوى يغزو فؤاده.
١١- للناس فيما يعشقون مذاهب.
١٢- أعرابي متعفف .
١٣- هي وهو .
١٤- وسؤال عن الحب .
١٥- سلاّمة القَسّ .
١٦- زوجات يصفن أنفسهن .
١٧ - سرّ الزِّرّ الذهبيّ .
١٨- هل فيكم عاشق ؟
١٩- إذا عُرف السبب بَطَل العجب .

أعجب قصص الحب !

(١)

(بَرِيرَة ومُغيث)

من أعجب قصص الحُبّ ، تلك القصة التى كان الحُبُّ فيها من طرف واحد !

وشهد النبىّ ﷺ وعمّه العباسُ أحداثَها ، وأبدى عجبَه مِمّا دار بين أطرافِها ، ووَدّ لو يجمعُ بينَ الشّتيتيْن !

يَرْوِى البُخارِىُّ عن ابن عباس :

أن زوجَ «بَرِيرةَ» كان «عبدًا» يقالُ له : «مُغيث» .

كأنى أنظُرُ إليه ، يطوفُ خلفَها يبكى ! ، ودموعهُ تسيلُ على لِحْيته !!

فقال النبى ﷺ لعمّه العباسِ :

«يا عباسُ ، ألا تعجَبُ من حُبِّ مُغيثٍ بَرِيرةَ ؟! ومِنْ بُغْضِ بَرِيرةَ مُغيثًا ؟!»

فقال النبىُّ ﷺ : «لو راجَعْتِه !!» .

قالت : يارسولَ الله ، تأمُرُنى ؟!

قال ﷺ : «إنما أنا أشفَعُ» !!

قالت : لا حاجة لى فيه [١] !!

لقد كانت بريرة جاريةً لِعُتْبةَ بن «أبى لهب» ، وزوّجها سيدُها عبدًا من عبيد «المغيرة» ما كانت لترضاه لو كان أمْرُها لها ، فأشفقت عليها «أم المؤمنين عائشة» - رضى الله عنها - فاشترتها ، وأعتقتها ، فقال لها النبى ﷺ : «ملكتِ نفسَك فاختاري» وكان زوجها مغيث يطوف خلفَها سِكَكَ المدينة يبكى عليها ، وهى تأباه !

فقال لها النبى ﷺ : «لو را جعتِه فإنه أبو وَلَدِك ؟!» قالت يارسول الله أتأمرنى ؟ فقال ﷺ : «لا ، إنما أ نا شافع» ، قالت : فلا حاجة فيه ، لو أعطانى كذا وكذا ما كنت عنده [٢] !

(١) البخارى فى الطلاق ، ١٦ ، وأبو داود ، ١٩ ، والنسائى فى القضاء .

(٢) مجموعة الفتاوى لابن تيمية .

(٢)

الوفاءُ العظيم!

(أبو العاص وزينب بنت رسول الله ﷺ)

(رضى الله عنها)

وهذه قصة الحب الكبير ، والوفاء العظيم !(١)

بدأت عندما زُفّتْ «زينبُ» بنت سيدنا «محمد ﷺ» إلى «أبى العاص بن الربيع» ابن خالتها «هالة» ، ومضت خديجةُ أمُ المؤمنين - رضى الله عنها- إلى الزوجين المتحابين تُبارك لهما ، وتدعو ربها أن يوفقهما !

وخلعت «قلادتها» ، وقدمتها هديةً لتجعلَها زينبُ فى عُنُقِها !

وعاش الزوجان فترة من الحب ، والوفاء ! وعندما أشرقت الأرضُ بنور رَبها بالمبعوث رحمة للعالمين .. كانت «زينب» مع السابقين الأولين ، وبقى «أبوالعاص» على دين آبائه الجاهليّين ! إلى ما قبل الحُدَيْبيَة بخمسة أشهر .

وباعد الزمن بين القلبين ، ولكن إلى حين ! موقف عجيب ، وشعور غريب سيطر عليهما !

إنهما يشعران أن هناك قوة أقوى من الحب تحاولُ أن تفرق بينهما طالما أن كلاً منهما قد تَمسَّك بموقفه !

فأبو العاص لا يُريد أن يخلعَ دين آبائه لسبب أو لآخر، و مع أنه صهر الرسول ﷺ لكنه فى ظروف لا تمكنه من الجهر بالإسلام ، وإعلانه على الملأ ! أما زينب فقد سارعت إلى دين أبيها ! ، وإن كانت لا تستطيع أن تلحق به ،

---

(١) جميع ما ورد من احداث واحاديث بهذه القصة مذكور بترجمة ابى العاص (رقم ١٠١٧٦) . القسم السابع من الإصابة لابن حجر العسقلانى ، وترجمة زينب بالقسم نفسه رقم (١١٢١٧) والطبقات (٨/٢٠) ، وأعلام النبلاء للإمام الذهبى .

فمكة كلها ثائرة لما حدث من هجرة الرسول وصاحبه ؛ ، ولم يأت الوقت المناسب لهجرتها ؛ ويعلنُ أبو العاص العصيان والتمرد ، فيقول:

«لن ينال ما بيننا يا زينبُ أن تكونى على دينك ، وأثْبُتَ على دينى ؛ فلن أسلّمَكِ للفراق ؛»

وزينب تقول له :

«مهلاً ياصاحبى ... لستُ حِلاً لك ، وانت على ذلك الدين فأسلمْنى إلى أبى حين تتاح الفرصة فى غفلة من قريش ؛ ، أو أسْلِمْ معى ؛

لن تكون زينب حِلاً لك بعد اليوم إلا أن تُؤمنَ بما آمنتْ»

وحال بينهما الإيمان ؛ مع أنهما فى بيت واحد يجتمعان ؛

ومن يدرى فربما جمعهما الإيمانُ فيما يستقبل من الزمان ؛

وأحَسَّ الزوج المحبّ أن هناك قوتين تتجاذبانه :

حِفاظه على دين آبائه ؛ وذلك الحب العنيف الذى استبد به فراح يحاول أن ينتزعَ «امرأةً مسلمةً» من دينها الذى آمنت به ؛

وأطرق الزوجان ساعة ، وسالت عبراتُهما نزولا على ما يقضى به الدين ؛

نعم لقد فرق الدينُ بينهما جسدين .. ولكن ظل قلباهما مؤمنين بالحب ؛

وبقيت زينب فى بيت «خالتها هالة» محفوظة مصونة ؛ حتى يُسمح لها بالهجرةِ إلى أبيها ﷺ فى غفلةٍ من قريش ؛ ولم يكن بين أبى العاص وزينب إلا نظرات المحبين بين الحين والحين حين يكونُ لقاء ؛ وهى ابنة خالته خديجة؛ وهو مسئول عن الحفاظ عليها حتى تهاجر إلى أبيها سالمة ؛ فهى أمانة فى رقبته ؛ وتلك هى الشهامة العربية ؛ وتتحرك قريش للقاء الرسول ﷺ وأصحابه فى «بدر» .

ويخرج «أبو العاص» فيمن خرج من المشركين للقضاء على المسلمين فى المدينة ؛

وزينب مع خالتها فى دارها بمكة تنتظر ؛

إن يدها على قلبها الذى تتابعت ضرباتُه ؛

إنها تتمنى الغَلَبةَ لأبيها وللذين آمنوا به ونصروه ؛ فهو أبوها ... وهو رسول الله ﷺ ... وهو قائد جيش المسلمين ... وهناك أخوات لها مسلمات يَقِفنَ إلى جانب الرسول ويشاركْنه الدفاعَ عن دين الله ؛؛

لقد أخذت تدعو الله قائلةً : «اللهمَّ اجعلْ الدائرةَ على المشركين ...»

ولكنْ نَجَ «أبا العاص» . وتحققت أُمْنيَتُها ، فدارت الدائرةُ على المشركين ، ونجا «أبو العاص» ولكنه وقع أسيرا فى أيدى المسلمين!»

فماذا تفعل لافتداءِ هذا الأسير ، الأثير[٢] لديها ؟؛

إن له مالاً كثيرا يمكن أن تفتديه به ؛ ، فقد كان من تجار قريش وأمنائهم ؛

ولكنها تَمُدّ يدها إلى صدرها ، فتخلع «قلادتها» وتبعث بها إلى رسول الله ﷺ إنها تفتديه بعقْد خديجةَ «ابن أخت خديجة» وصهر نبى الله ﷺ ؛؛ .. إنه الحب ؛

لقد قدمت «هديةَ عُرْسِها» من أُمّها مهرا لحرية الزوج الذى فقدته مرتين ؛

وبعثت رسولَها إلى أبيها ، ومعه المال والقلادة وقال رسولُها :

يامحمدُ ؛ هذا «مال» من مال أبى العاص؛؛

وهذه قلادة خديجة بنت خويلد ؛؛ (رضى الله عنها؛؛) بعثتنى بها «زينب» فى فداء أبى العاص ؛

وعندما رأى الرسول ﷺ قلادة خديجة تراءت له صور الماضى الجميل ، وكأنما راحت ابنته زينب وزوجته خديجة تسألانه العفو والصفح عن هذا الأسير ؛ ... ونظر النبى ﷺ فى أصحابه فقال :

«إن رأيتم أن تُطْلقُوا لها أَسيرَها ، وتَرُدّوا عليها مالَها ، فافعلوا ؛ »[٣]

---

(١) بقال : درات عليه الدوائر : نزلت به ، والدائرة : الداهية .

(٢) الأثير : المفضّل الذى تفضله على نفسها ؛

(٣) المغازى لابن إسحاق كما ذكر ابن حجر . وأخرجه احمد ٦/٢٧٦ ، وابو داود (٢٦٩٢) من طريق

وعاد «أبو العاص» إلى مكة ، وقد ازداد حُبّه لزينب وتمسّكه بها ، وتقديرُه لصنيع أبيها معه :

وكانت المفاجأةُ حين قال لزينب :

«عودى إلى أبيك يا زينب!» .

وخَنَقَتْه العبراتُ : وقال : لقد وعدتهُ ، ووعدُ الحرّ دينٌ عليه :: إن الرجلَ الحُرّ لا يملك إلا الوفاءَ بما أخذ عليه وقد أخذ عليه أبوها عهداً بأن يُطْلِقَها تسير إليه : » .

لكنه لا يقوى على وداعها فما أمرّ الوَداع :: ؛ وربما كان هذا هو الوداعَ الأخير مادام سلطانُ الدين قائما بين القلبين :

ومضى يقول لأخيه «كنانة بن الربيع» :

ياأخى ؛ إنك لتعلم مَوْضِعَها من نفسى ؛ فما أُحِبّ أن لى بها امرأةً من قريش :: .

وإنك لتعلمُ أن لا طاقةَ لى بأن أفارقَها : فاصْحَبْها عنّى إلى طرَفِ البادية ، حيث ينتظرها رَسُولاً محمد :

فارفُق بها فى السفر ، وارعَها رعايةَ الحُرَمات : ولو نَثَرْتَ دونها كنانتك[1] .

لا يدنو منها رجل حتى تبلغ أباها!:» .

وافترق الزوجان ، فلا سبيل إلى لقاء :

وأقام «أبو العاص» فى مكة لكن قلبه كان مع «زينب» فى المدينة :

وأقامت «زينب» فى المدينة مع أبيها رسول الله ﷺ لكن قلبها كان مع زوجها أبى العاص بمكة ، ترجو الله أن يهديه ، ويجمعهما على الإسلام : .

لقد اعتلّ جسمُها ، ووهنت قُواها ، ولولا الإيمان والتُّقَى يشدان من عزمها

---

* ابن إسحاق .

(١) الكنانة : جَعْبة من الجلد للنَّبْل ، ولقد روعها «هَبّار بن الأسود» بالرمح ، فقال كنانة : والله لايدنو أحد إلا وضعت فيه سهما ، فقال أبو سفيان : كفَّ عنا نبلك حتى نكلمك . لقد خرجت بالمراة على رءوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا فى بدر فارجع بها حتى لايقول الناس : إننا رددناها ؛ ثم تسلل بها سرا ، والحقها بابيها ، فخرج بعد ليال ، فسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه اللذين كانا فى انتظارها موفدين من الرسول ﷺ.

ويَرْبِطان على قلبها لأعجلها الموت قبل أن يحينَ اللقاء بينها وبين زوجها !!

ومضت سنوات ، وكان أبو العاص قد خرج فى تجارة له إلى الشام فربح الكثير ، وفى طريق العودة لقيته سَرِيّة [1] لرسول الله ﷺ ، وأصابوا ما معه ، وأفلت هاربا ! لكن هذه الأموال التى استولى عليها المسلمون هى لقريش، ولا بُدّ من ردّ الأماناتِ إلى أصحابها !

فكيف السبيل ؛ وحياتهُ معرضة للخطر ؟!

وهنا تذكَّر «الحبيبة» التى وهبت له الحياة مرتين :

مرة حين اقترن بها ، فأحَسّ فى ظل حبها بأنه قد ولد من جديد ! وأن روحه التى كانت بعيدة عنه قد اقتربت منه !

ومرة حين افتدته عند أبيها بقلادة أمها : وتراءت له ، وخُيِّلَ إليه أنه يحدثها ، فهمس إليها :

أتهبين لى الحياة ثالثة يا زينب ؟!

وفى ظلام الليل تسلل «أبو العاص» إلى المدينة المنورة حتى دخل على زينب بنت الرسول ﷺ وابنة خالته !

وطلب إليها أن تُجيرَه وتَحْميَه ، وأن تُعينَه على ردّ ماله ، فأجارته حتى إذا أصبح الصباح ، وسعى الناس إلى المسجد ، وكبّر رسول الله ﷺ ، وكبر الناس ، وإذا صوت يهتف من وراء جدار :

«أيها الناس ؛ إنى قد أجرْتُ «أبا العاص بن الربيع» ، فهو فى حمايتى وأمنى!» .

وكانت زينب هى التى تهتف !

وعندما فرغ النبى ﷺ من صلاته قال :

«أيها الناس ؛ هل سمعتم ما سمعت؟!» .

أما والذى نفْسُ محمدٍ بيده ... ما علمت بشىء من ذلك ، حتى سمعتُ ما سمعتم !

إنه يجير على المسلمينَ أدناهم» .

---

(١) السّرية : قطعة من الجيش ، يتولى قيادتها أحد الصحابة ، أما الغزوة فالقيادة فيها للرسول ﷺ .

ثم دخل على ابنته فحدَّثها ، وحدثتْه وأكبر محمد ﷺ فى ابنته هذا الوفاء العظيم لزوجها الذى فارقته لأمر الله !

لقد انقطع ما بينها وبينه من شهوات النفس لأمر الله ، لكن بقى البرّ ، والوفاء ، والمعونة ...

بر المسلمة ... ووفاء القرابة ... ومعونة الإنسان ! وتأثر النبى ﷺ بما سمع... وما علم ... وود أن يهدى اللهُ «أبا العاص» ليلتئمَ الشملُ ، ويتدفق نهر الحب من جديد بعد أن كادَ يجف أو تتحول مياهه إلى جليد !

لقد بعث إلى «السَّرِية» التى أصابت مالَه وعائدَ تجارته ، فقال :

«إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تُحْسِنوا ، وتردوا عليه مالَه ، فإنا نحب ذلك !

وإن أبيتُم فهو فىْءُ[1] الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به» .

قالوا : «بل نرده عليه!» .

وقال نفر منهم لأبى العاص : هل لك أن تُسْلِمَ يا أبا العاص ، وتأخذ هذه الأموال ، فإنها أموال المشركين الذين أخذوا أموال المسلمين[2] .

فقال الرجل : بئس ما أبدأ به إسلامى ، أن أخون أمانتى ! ؛ لقد ائتمنونى على هذه الأموال !

فردوا إليه مالَه ؛ كرامةً للرسول ﷺ ، وإكبارًا لزينب !

وعاد الرجل إلى مكة بماله ، ومال الناس ، ونفسُه تفيض بشتى المعانى ...

وأمام عينه صورة لا تفارقه !

ودقات قلبه تعْلُو ... ولا تهدأ ....

---

(١) الفىْءُ : الغنيمة تنال بلا قتال .

(٢) لم يكن فى هذا العرض تحريض على أكل الأموال بالباطل بل هو من قبيل رد العدوان بمثله ، وقد سبق أن استولى كفار قريش على أموال المسلمين ! وليس فيما رآه أبو العاص مايخالف المبادئ الإسلامية ، فقد كلف الرسول ﷺ عليا رضي الله عنه حين هاجر أن يبقى ليرد الأمانات إلى أهلها ! وقد أمرنا الله أن نؤدى الأمانات إلى أهلها !

فلما أدى إلى كل ذى حق حقَّه قال :

«يا معشر قريش ؛ هل بقى لأحد منكم مال عندى ؟!» .

قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيّا كريما !

قال : « فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبدهُ ورسولُه» .

والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تَخوُّفُ أن يظنوا أنى إنما أردت أن آكلَ أموالكم !

فلما أداها الله إليكم ، وفرغتُ منها ، أسلمتُ !» .

وخرج «أبوالعاص» من مكة إلى المدينة مهاجرا إلى الله ورسوله يهديه نورالإيمان ، ونور الحب !

«فرد النبى ﷺ زينب عليه»[1] بعد ستة أعوام على النكاح الأول .

وتلاقى الزوجان المتحابان مرة ثانية بعد فراق طويل وأحست الزوجة الوفية أنها أدت واجبها ، وفرغت من دنياها يوم هدت الرجل الذى أحبته ، ووفت له بمقدار ما أحبها ، ووفى لها !

ولم تمض سنوات حتى لقيت زينب ربها متأثرةٍ بما حدث لها يوم هجرتها على يد عدو الله : هبار بن الأسود ، وقد خلفت وراءها أطيب الذكرى !

وضربت أعظمَ المثل ؛ فى وفاء الزوجة ، وإخلاص المحبة ، وصدق الإيمان !

فما أروعها قصة ظلت ماثلة أمامنا على مر الزمان[2] .

(١) الخبر بطوله أخرجه ابن هشام ١/٦٥٣ - ٦٥٩ ، والحاكم ٣/٢٣٦ - ٢٣٧ .
وحديث رد زينب على العاص على النكاح الأول أخرجه أحمد (٦٧٨١) .
(٢) انظر «زوجة وفت» للراحل الأستاذ محمد سعيد العريان بتصرف كبير .

(٣)

مِثْلَك فلْيَتَزَوّجِ الرجالُ !

رُوِىَ أن «مالك بن عمرو الغسّانى» تزوج ابنة عَمٍّ للنُّعمانِ بن بشير الأنصارىّ؛ فأحبّ كلّ منهما صاحبه ، وكان شجاعًا بطلا مِقدامًا ، فعَهدت إليه أن لا يُباشِرَ حَرْباً !

ثم إنه غَدَا فلَقِىَ العَدُوّ فطُعن ، فقال ، وهو يجودُ بنفسه :

ألا ليتَ شِعْرِى عَنْ غزالٍ تَركْتُه

إذا ما أتَتْهُ مِيتَتِى كيف يصْنَعُ ؟!

أيَلْبَسُ أثوابَ الحِدادِ تفجُّعًا

على مالكٍ أمْ فيه للبعْلِ مَطمعُ (١)

فلو أنَّنى كنتُ المؤخَّرَ بعدَه

لما بَرِحَتْ نفسِى عليه تَقَطَّعُ

فلما أتاها خبرُه ، توقف لسانُها عن الكلام حَوْلاً ؛ فقال رهطُها وعَشيرتُها : لو زوَّجتموها غيره ، لعلها تَسْلى ، وتُفيق ، فزَّوجوها رجلا من «أبناء الملوك» فساق إليها هديةً عظيمة القَدر.

فلما كان ليلةَ بنائه بها أنشأت تقول :

يقولُ رجالٌ : زَوِّجُوها لَعَلّها

تُفيقُ ، وترْضى بعده بَحليل ! (٢)

فأضمرتُ فى النفسِ الذى ليسَ بَعْده

رَجَاءٌ لها ، والصِّدْقُ أفضَلُ قِيلِ

أبعد «ابنِ عمرٍو» سيّدِ القوم «مالك»

أُزَفُّ إلى زوجٍ بعضْبٍ كليل (٣)

---

(١) البعل : الزوج . (٢) الحليل : الزوج .

(٣) العضب : السيف ، والكليل : غير القاطع كناية عن الجبن .

وخـبَّـرنى أصـحـابُه أن مـالكًا

خفيفٌ على العِلاّتِ غيرُ ثقيلِ [1]

وخَـبَّـرنى أصـحـابُه أنّ مـالكًا

ضَروبٌ بماضى الشَّفْرتين صَقيل [2]

وخـبـرنى أصـحـابه أن مـالكًا

جَوَاد بما فى الرحل غـيـرُ بخـيلِ

وخـبَّـرنى أصـحـابهُ أن مـالكاً

ثوى ، وتَنَادَى صـحـبُـهُ برحـيلِ [3]

فما كان يشْرينى خليلى بُخلَّةٍ [4]

ومـاكنتُ أَشْـرِى مـالكًا بخليل

فقال لها بعلُها :

ارْجِعى إلى أهلكِ ، ولك كُلُّ ما سُقْتُ إليك ! «مِثلك فَلْيتزَوّج الرجالُ !» .

(٤)

الوَفَاءُ النَّادِرُ !

إنه وفاءُ امرأةٍ عامرية توفى عنها زوجهُا ! ولقد روى «الهيثمُ بن عدىّ» قصةَ وفائها فقال : كان لها ابنا عم ، فلما مات زوجُها توجَّها إلى بعض شيوخهما فقالا له :

فُلانةُ جاريةٌ شابّة ، والقالَةُ [5] إلى مثلها سريعة ، فوجِّهْ إليها فلْتَحْضُرْ ، واعْرض عليها أينا تهوى حتى يتزوّجها ، فوجّه الشيخُ إليها ، فأتته ، فعرض عليها مقالتهما !

---

(١) على العِلاّت : فى كل الحالات والأوقات ، والظروف والملابسات .
يخف للنجدة ، والغوث ، ولقاء الأعداء ودحرهم .

(٢) الصّقيل : المصقول اللامع ، وماضى الشفرتين : كناية عن السيف القاطع . وليس ذو الشفرة كذى الشفرتين !

(٣) ثوى بالمكان : أقام فيه .

(٤) خُلّة الرجل : زوجته . وشراه : باعه .

(٥) القالَة : كلمة السوء . والجارية:المرأة .

فأطرقت مَليًّا تتكُتُ الأرض حتى حفَرَتْ حُفَيرة وملأتها من دموعها !

وكان زوجُها قد دُفن بمقْبرة تُدعى بحوضَى فالتفتت إلى ابنى عمها ، وأنشأت تقول :

فإن تسألانى عن هَوَاىَ ، فإنه
رَهينٌ بحوضى ، أيُّها الفتيَان
وإن تسألانى عن هواىَ ، فإنه
رهينٌ له بالحبِّ ؛ يارجُلان
وانى لأَسْتحيِيه ، والموتُ دونَنَا
كما كنتُ أَسْتَحْيِيه حين يرانى !
أهابُك إجلالاً - وإن كنتَ فى الثَّرَى [1]
لِوَجْهكَ يَوْمًا ، أن يَسُؤْك مكانى

وهنا قال الشيخ : ياله من وفاء نادر ! فما أجمل أن تكون الزوجاتُ على هذا الوفاء ...انصرفوا فى أمان الله ! ودعوها رمزا للوفاء النادر !

وفى طريق العودة مرّ الركب بقبر الزوج ، فوقفوا يترحمون عليه ! وإذا هى تطل من هودجها عليه ، متودّدةً إليه ، مقبلة عليه ، وكأنها بين يديه ، وراحت تخاطبهُ من هودجها قائلة :

يا صاحبَ القبر يامن كان يُؤنِسُنِى
وكان يُحْسِنُ فى الدُّنْيا مُؤَاتَاتِى

وماتت الكلمات على شفتيها !!

ثم شهقت ، فماتت لتلحق بمن كان قُرّةَ عينها وحبيبًا إلى قلبها ! ولتكمل حين تلقاه قصيدتها !! فكانت مثلا فى الوفاء النادر !

❀❀❀❀❀

(١) الثرى : التراب المبلل بالندى .

(٥)

لون من النساء !

رُوِىَ أن امرأةً من نساء العرب تزوجت رجلا من «خَثْعم» فتعلق كلٌّ منهما بصاحبه ، وتحالفا أن لا يتزوّجَ أحدهما بعد موت صاحبه ، فمات قبلها !

فتزوجت ، فلامَها بعضُ أهلها ، وقالوا :

أين ذاك الحبّ والوَجْد ؟!

فأنشأت تقول :

وقد كان حُبّى ذاك حُبّا مُبَرِّحًا [١]
وحُبِّى لذا إذا مات ذاك شديدُ
وكان هَوَاىَ عِنْد ذاك صبابةً
وحُبّى لذا ، طُولَ الحياة يزيدُ
فلَمَّا مَضَى عادت لهذا مَوَدّتى
كذاك الهوَى - بعد الذّهابِ يَعُودُ

فعرفوا أن النساء ألوان !!

(٦)

غدرُ الرجال !

إن كان «الوفاء» فى النساء عزيزا نادرَ الوجود ، ففى الرجال من هو أكثر منهن غدرا !

حكى الأصْمَعِىُّ قال :

كان رجل من الأعراب يُظهِرُ الوَجد [٢] لامرأته ، وكانت تُظهِر له مِثْل ذلك !

فتعاهَدَا ألا يتزوج منهما من يبقى بعد صاحبه ؛ حتى يلتقيا فى الجنة التى وعد الله بها المتقين ، فتكون من نصيبه ، ويكون من نصيبها !

(١) برَّح به الحب : اشتدّ ، فهو مُبَرِّح . (٢) الوَجد : الحُب .

فامتدت يَدُ المنية [1] إليها قبله ، فما كان منه إلا أن خطب امرأةً من يومه ذلك !

فقيل له : أتخطبُ بعدَ يمينك وعهدك ؟!

فقال :

خَطَبْتُ كما لو كُنتُ قد مُتُّ قبلَها ... لكانت - بلا شَكّ - لأولِ خَاطبِ
إذا غـاب بَعْلٌ ، كـان بَعْلٌ مكانَه ... ولابدّ من آتٍ ، وآخـرَ ذاهبِ !

(٧)

من طلق امرأته مرغما فتبعتها نفسُه

كانت «عاتكةُ بنتُ زيد بن عمرو بن نُفَيْل» عند «ابن أبى بكر الصِّدِّيق» ، فأحبها حُبًّا شديدًا شغله عن تجارته ، فأمره أبو بكر ، فطلقها ، فتبعتها نفسه ، وظل على حُبّه لها !

وذات يوم سمعه أبوه يقول :

فلم أر مِثلى ، طلّق اليومَ مِثْلَها
ولا مِثْلَها - فى غير جُرْمٍ - تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ سَهْلٌ ، وحُسْنٌ ، ومَنْصِبٌ
وخلْق سَوى مـا يعُـابُ ، ومنطقُ
أعـاتِكَ [2] لا أنسـاكِ مـا حَجّ راكبٌ
ومـالاح نجمٌ فى السَّمـاءِ مُـحلِّقُ

فرقّ عليه أبوه ، فراجعها ، فقال لما رجعت إليه :

أعاتكَ ؛ قد طُلِّقْتِ من غير بِغْضَةٍ
ورُوجِـعْتِ لـلأمـر الذى هو كـائنُ

---

(١) المنية : الموت .

(٢) أعـاتكَ : أسلوب نداء كـأنك قلت : ياعـاتكَ ، ولك أن تفتح الكاف كـما كانت عند نطق الاسم كاملاً حين تقول : أعاتكَةُ ، ولك أن تضمها . وكأن الاسم قد اكتمل . فتقول : أعاتكُ.

كـــذلك أمـــرُ اللـهِ غـــادٍ ورائـحٌ

على الناسِ فيـه أُلفَةٌ ، وتبـايُنُ

ومـــازالَ قلْبى للتـــفَـــرُّق بائنًا

فقلبى - لِما قد قربَ اللهُ - ساكنُ

ليَهْنِكِ[1] أنى لم أجدْ منكِ سَخْطةً

وأنك قـد جلَّت عليك المحـاسنُ

وأنك مِـــمّن زيّن اللـهُ أمـــرَها

وليس لما قَـدْ زيّن اللهُ شـائنُ

فلم تزل عنده ، حتى قُتل «يوم الطائف» رُمى بسهم فمات ، فَجَزِعَتْ عليه جزعًا شديدا ، وقالت ترثيه :

آليتُ لا تَنْفَكُّ عـــينى حـــزينةً

عليك ، ولا ينفكُّ جلدىَ أغبَـرا

فَلِلّهِ عَـيْنَا من رأى مـثله فـتىً

أشَدَّ ، وأحمى فى الهياج ، وأصبرا

إذا أُشْرِعَتْ فيه الأسنةُ خاضها

إلى الموتِ ، حتى يتركَ الرمحَ أشقرا [2]

ثم خطبها «عمرُ بن الخطاب» ، فأوْلَم عَلَيْها ، فمكثت عنده حتى قُتِل عنها ! قتله أبو لؤلؤة ، فقالت ترثيه :

عَـيْنُ جـودى بعَـبْـرةٍ ، وَنحـيبِ

لا تَمَلّى على الأمـيـر النجـيب

فـجَـعْـتنى المنونُ بالفـارس المُعْـ

ـلَم يوم الهـيـاج والتـأتيب [3]

عِـصْـمـةُ اللهِ ، والمعينُ على الدهـ

ـرِ ، غـيـاثُ الملهـوفِ والمكروبِ

---

(١) ليَهنك : هنيئا لك !

(٢) أشقَر : بلون الدم . والأشقر من الدماء : ما صار علَقًا ، لم يخالطه الغبار .

(٣) المعْلَم : الذى له علامة فى الحرب تميزه عن غيره ، والتأتيب : تقلّد القوس فى الحرب.

قُلْ لأهلِ البأساء والضرّاء : مُوتُوا

قد سقتهُ المنونَ أمُّ الرّقوبِ [1]

ثم تزوجها «الزبير بن العوّام» فمكثت عنده حتى قتل عنها منصرفا من «وقعة الجمل» بوادى السباع قتله «ابن جُرموز» ، فرثته ، وفيه تقول :

غَدَرَ ابنُ جُرْموزٍ بفَارِسِ بُهْمَةٍ

يوم اللقاءِ ، وكان غيرَ مُعَرَّدِ [2]

ياعمرُو ؛ لو نَبَّهْتَه لوجدته

لا طائشًا رُهْبَ الجنانِ ، ولا اليَدِ [3]

ثَكِلَتْك أمُّك أنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِمًا

حلّتْ عليكَ عُقوبةُ المتعَمِّدِ

فخطبها علىّ بن أبى طالب ، فبعثت إليه :

إنى لأضِنُّ بك عن القتل !

وإنما استحيت فامتنعت بعد قولها : آليت لاتنفك عينى إلخ .

(٨)

الرجل الذى خرج من الجنة !
قصة الفرزدق والنوّار

وقصة «الفرزدق مع النَّوَار» لاتخلو منها كتب الأدب .

والفرزدق لقب غلب عليه ، وتفسيره : الرغيف الضخم الذى يجففه النساء للفَتُوت (الثريد) أو (الفتة بلغة المصريين) .

وقيل : بل هو القطعة من العجين التى تبسط ، فيخبز منها الرغيف ، شبه وجهه بذلك ، لأنه كان غليظا جهما ، واسمه «همّام بن غالب» .

(١) المنون : الموت . وأمّ الرَّقوب : الداهية .

(٢) البُهمَة : الشجاع الذى يُستَبْهَمُ مأتاه على أقرانه .
والمعَرَّد : الذى يهرب ويفر من الميدان . يقال : عَرّد الرجل عن قرنه : إذا أحجم ونكل .

(٣) الرُّهْبُ : الخوف مثل الرُّشد .

ويقول أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى :

كان الشعراء فى الجاهلية من قيس ، وليس فى الإسلام مثل حَظّ تميم فى الشعر ، وأشعر تميمٍ : جريرٌ والفرزدقُ .

✍ خبره مع النّوار:

ويقول أبو الفرج : كان من خبر النّوار - والنّوار ابنةُ أعيَن بن صعصعة ، وكانت ابنة عمه - أنه خطبها رجل من بنى عبد الله بن دارم فرضِيَتْه ، وكان الفرزدقُ وليَّها ، فأرسلت إليه أن زوجنى من هذا الرجل :

فقال : لا أفعل أو تُشْهدينى أنك قد رضيت بمن زوجتُكِ ؛ ففعلت :

فلما توثق منها ، قال :

أرسلى إلى القوم فليأتوا ، فجاء القوم ، وملئوا المسجد ، وجاء الفرزدق فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

قد علمتم أن «النّوار» قد ولّتنى أمرها ، وأُشهدكم أنى قد زوجتُها نفسى على مئة ناقةٍ حمراءَ سوداء الحدقة :

فنفرت من ذلك ، وأرادت الشخوص إلى ابن الزبير حين أعياها أهلُ البصرة ألاَّ يُطلّقوها من «الفرزدق» حتى يشهدَ لها الشهود :

وأعياها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء لسان الفرزدق : وخوفا من هجائه :

و«ابن الزبير» يومئذ أميرُ الحجاز والعراق ، يُدّعى له بالخلافة ، فلم تجد من يحملها إليه لترفع شكواها خوفا من لسان الفرزدق :

ولكن فتيةً من عَدِىّ حملوها إلى «ابن الزبير» ، فأدركها «الفرزدق» وقد قدمت مكة واستجارت «بخولة بنت منظور بن زبّان» ، وكانت عند «عبد الله بن الزبير» .

فلما قدم «الفرزدق» مكة اشرأبَّ الناس إليه ، ونزل على أبناء «عبد الله بن الزبير» فاستنشدوه ، ثم شفعوا إلى أبيهم ، فجعل يُشَفّعُهُم فى الظاهر حتى إذا صار إلى «خولة» قلبته عن رأيه ، فمال إلى النّوار ووقف إلى جانبها ،

فقال الفرزدق فى ذلك :

أما بنُوهُ فلم تُقْبَل شَفَاعَتُهم
وشُفِّعَتْ بنتُ منْظُور بن زبّانا

ليْس الشفيعُ الذى يأتيك مُؤتزرا
مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عُرْيانا

قال : وسَفَر بينهما رجال من بنى تميم كانوا بمكة ، فاصطلحا على أن يرجعا إلى البصرة ، ولا يجمعهما بيت حتى تحكم العشيرة فى أمرهما ، ففعلا، فلما صارا إلى البصرة رجعت إليه النوار بحكم عشيرتها .

قال الحرمازى : ومكثت النوار عنده زمانا ، ترضى عنه أحيانا ، وتخاصمه أحيانا ، وكانت النّوارُ امرأةً صالحة ، فلم تزل تشمئزُّ منه ، وتقول له : ويْحك ! أنت تعلم أنك إنما تزوجتنى ضُغَطة (على رغمى) ، وعلى خُدْعة !

قال المازنى : فلم تزل النوار تُرقِّقه ، وتستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها ، وعندئذ ندم ندمًا شديدا ، ثم قال :

نَدِمْتُ ندامةَ الكُسَعِىِّ [1] لمّا ... غدت منّى مُطَلَّقةً نَوَارُ
ولو أنى ملكت يدى وقلبى ... لكان علىّ للقدر الخيار
وكانت جَنَّتى فخرجْتُ مِنْها ... كآدمَ حين أخرجه الضِّرارُ [2]
وكنت كفاقئ عينيه عمدًا ... فأصبح ما يُضىء له نهار !

(٩)

عدو المرأة حتى التلاقى !

وإذا كان الفرزدق قد طلق امرأته وندم على ما فعل ! ؛ فهذا أنموذج مختلف فقد طلق امرأته ، وتنفس الصُّعداءَ ، واستراح ، إنه يقول :

---

(١) الكُسَعِىّ : رجل يضرب به المثل فى الندامة على كَسْرِ قوسه ، وكان قد جربها فى عِدّة ظباء، فظن أنها لم تصبهن ، ثم اتضح أنها أصابتهن جميعا .
(٢) الضِرار : مخالفته أمر ربه .

رحلت «أُنَيْسَةُ» بالطَّلاقِ وعُتِقْتُ من رِقِّ الوَثاقِ [1]
بانَتْ فلم يالَمْ لها قَلْبى ، ولَم تبْكِ المآقى [2]
ودَواءُ ما لا تَشْتَهِيـ ـهِ النَّفْسُ : تعْجِيلُ الفِراقِ
لَوْ لَمْ أُرَحْ بِفِراقِها لأرَحْتُ نَفْسى بالإباقِ [3]
وخَصَيْتُ نَفْسِى لا أرِيـ ـدُ حَلِيلَةً حتى التلاقى ! [4]

(١٠)

يغزو العدوّ والهوى يغزو فؤادهُ

حدّث الزبيرُ بن بَكّار قال :

رأيتُ رجلاً بناحية الثَّغْر على الحدود يحملُ سلاحه وحركاتُ المحبِّ لا تخفى فى شمائله ، ولا يسترها بتَصاوُنِه ، فسألتهُ فى بعض أيامه - وقد خلوتُ به - عن حاله ؛ فكان جوابهُ ، وقد تحدَّرت الدموعُ من عَيْنَيْه :

أنا فى أمْرَىْ رشَادِ بين غَزْوٍ وجِهادِ
بدنى يغزو عَدُوّى والهوى يغزو فؤادى !

فلما رأيت منه ما رأيت ، أشفقت عليه !

وسألت الله أن يجمع بينه وبين من يحب ويهوى !

وينتصر على عدوه ! ولسان الحال يقول :

وقد يجمعُ اللهُ الشتيتين بعدما
يُظُنَّانِ كُلَّ الظّن أن لاتلاقيا ؟!

---

(١) كان قبل طلاقها كالأسير الموثق ، فلما طلقها كأنه أطلق من وثاقه .

(٢) بانت : فارقت وبعدت ، والمآقى جمع «موق» وهو طرف العين الذى يلى الأنف وهو مجرى الدمع.

(٣) أُرَح : أى أرتاح بعد المشقة ، والإباق : الهرب .

(٤) خَصى النفس : قطعها عن الملاذ ، والحليلة : الزوجة وحتى التلاقى : إلى وقت تلاقى الخلق يوم القيامة .

(١١)

للناس فيما يعشقون مذاهب !

أورد ابن الجوزى فى ذم الهوى أن «أبا عبد الله الحبشانى» كان يعشق جارية سوداء (اسمها سوداء العلاقمية)، وقد تَوّلهَ بها إلى حد أنه أشرف بسبب هذا العشق على الموت !

وقالوا لمولاها : لو وُجّهت «صفراء العَلاقميَّة» إليه فلعله يعقل إذا رآها !

ولما أذن دخلت عليه ، فقالت :

كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟

قال : بخير مالم تبْرحى !

قالت : ما تشتهى ؟

قال : قُربَك .

قالت : فما تشتكى ؟

قال : حُبّك !

قالت : فتُوصى بشىء ؟

قال : أوصى بك إن قبلوا منى !

قالت: إنى أريد الانصراف .

قال : فتعجلى ثواب الصلاة علىّ .

فقامت ، فانصرفت ، فلما رآها مولية تنفس الصعداء ومات من ساعته [١] .

وقد اطمأن قلبه إلى صلاتها عليه !

وأنها لن تحرم ثواب تلك الصلاة!

إنه الحب !!

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزى تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ٥٢٠ .

(١٢)

أعرابىّ مُتعفّفٌ

قال أعرابى فى امرأة يعشقهُا ، وجمع الله بينهما فى الحلال :

مازال القمر يُرِينيهَا !

فلما غاب أرتنيه !

قيل : فما كان بينكما ؟

قال : أقصى ما أحلّ اللهُ !

وأدنى ما حرّم اللهُ عز وجل :

إشارة فى غير باس [١] !

ودُنُوٌّ فى غير مسَاس !

وأنشأ يقول :

ولَرُبَّ لذّةِ ليلةٍ قــد نِلْتُــهَــا

وحرامُهَا - بحلا لها - مدْفوعُ !

(١٣)

هىَ وهُوَ

قال أعرابيّ من فَزَارةَ :

عَشِقْت جاريةً من الحىّ .. فحادثتُها سنينَ كثيرة !

فوالله ما حدَّثتُ نفسى بريبَةٍ قطُّ ، سوى أن رأيت بياض كفِّها فى سوادِ الليل ، فوضَعتُ كفِّى على كفِّها !

فقالت : مَهْ ! (اكفف عن هذا) ، لا تُفْسدْ ماصَلحَ !

فارفضّ جبينى [٢] عرقاً !

ولم أَعُدْ !

---

(١) الباس : البأس خففت همزتها ، ومن معانى البأس : الحَرَجَ ، والخوف . يقال : لا بأس عليه ، ويقال : لا بأس به : لا مانع ، ولا بأس فيه : لا حرج .

(٢) ارفَضَّ : سال .

(١٤)

وسؤال عن الحب !!

قال «الأصمعى» : رأيت «جارية» وهى تقول :

اللهمّ مالك يوم القضاء ، وخالق الأرض والسماء ، ارحم أهل الهوى ، واستنقذهم من عظيم البلاء ، واعطف عليهم قلوب أودّائهم [٢] بالصّفاء ، فإنك سميع النجوى ، قريب لمن دعا ، ثم أنشأت تقول :

يارب إنك ذُو مَنّ ومَغْفِرةَ

بَيّتْ بعافيةٍ منكَ المحِبّينَا

الذاكرينَ الهَوَى من بعْد ما سَهِرُوا

حتى يظلُّوا على الأيدى مُكبّينَا

فقلت لها : وماالحب ؟ وانا به أعرف منها - فقالت : جلّ عن أن يخْفى ، ودَقّ عن أن يُرى ، له كُمُونٌ ككُمون النار فى الحجر ، إن قَدَحْتَه [٣] أوْراك ، وإن تركته توارى !

(١٥)

سلاَّمةُ والقَسّ

عندما راي « عبدُ الله بن عبدالرحمن » - الذى كان يعرف بالقس ؛ لعبادته - سلاّمة ، وقعت فى قلبه ، ووقع فى قلبها !

فقالت له يوماً :

انا - واللهَ - أُحبِك !

---

(١) جمع ودود .

(٢) قدح بالزّنْد ، ضرب به حجره لتخرج النار منه ، ويقال : قدح النار من الزند : أخرجها منه ، وقدح الزّنْدَ ، ضربه بحجره ليخرج النار منه . واوْرى الزّنْدَ ، خرجت نارُه .

فقال :

وأنا والله - أحبّك :

قالت : فأنا والله - أشتهى أن أضع فمى على فمِكَ :

قال : وأنا والله - أشتهى ذلك :

قالت : فما يمنعك من ذلك ؟!

قال : ويحك : ، إنى سمعت الله يقول :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف : ٦٧]

فأنا أكره أن تكون خُلّتى لك[1] فى الدنيا منقطعةً فى الآخرة :

ثم وثب ، فانصرف :

وبقيت قصة الحب العفيف .. حب القسّ سلامة ... وحب سلامة القس نموذجًا للعفاف والطهر فى دنيا الحب ، وعالم المحبين : إلى جانب قيس وليلى.. وكُثيّر وعزة .. وقيس ولُبنى :

(١٦)

زوجات يصفن أنفسهن شعرًا :

اعتدنا على أن يصف الرجالُ النساء : أو تصف النساءُ الرجال :

ولكن أن تصف «زوجات أربع» أنفسهن لزوج واحد ، فيما يشبه المباراة فهذا هو الطريف :

حدث الأصمعى قال :

كان أعرابى عنده أربع نسوة : كِنْديّة ، وغَسّانية ، وشيبانية وغَنَوية ، والأعرابى غسانى ، وكن متظاهراتٍ[2] على الغَنَويه فجمع بينهن ثم قال :

---

(١) الخُلّة : بضم الخاء المحبة التى تخللت القلب ، فصارت خِلاله : أى فى باطنه .

(٢) يتظاهرن عليها ، ويتحزبن ضدها .

لِتَقُل كُلُّ واحدةٍ منكن قولاً تصف به نفسها .

فقالت الكندية :

كَأَنَّى جَنَى النحلِ والزَّنجبيل ... وصَفْوُ الفَواكِهِ والسَّلْسَبِيل
يزينُ سَنَا الوجه لى مَبْسَمٌ ... كمثلِ اللآلى ، وعينٌ كَحيل

وقالت الغسانية :

برانى إلهى إلهُ السَّمَا ... نِصْفًا قضيبا ونِصْفًا كثِيبَا
وألبسنى ما يَسُوءُ الحَسُودَ ... جَمالا ، وملْحًا ، وحُسْنا عجيبا [1]

وقالت الشيبانية :

أفوقُ النساءَ - إذا ما اجْتمعـ ... ـن - كبَدْرِ السَّماءِ نجومَ الدُّجَى [2]
وتقْصُرُ عنى جميعُ الصفاتِ ... فمن نالنى نالَ الرَّجَا

وقالت الغنوية :

تزوّد بِعَيْنِكَ من بَهْجَتى ... فقد خَلق اللهُ مِنّى الجَمالاَ
إذا ما تَفَرّسْتَ فى رؤيَتى ... رأيتَ هِلالاً وأَحْوَى غزالا [3]

(١٧)

سِرُّ الزِّرّ الذهبى !!

القاضى الفاضل «مجير الدين عبد الرحيم بن على البيسانى» كان وزير السلطان الملك الناصر «صلاح الدين» ورئيس «ديوان الإنشاء» .

وكان «الملك العزيز بن صلاح الدين» يميل إلى «القاضى الفاضل» فى حياة أبيه ، فاتفق أن «العزيز» هوى «قينَة»[4] شغلته عن مصالحه ، وبلغ ذلك والده، فأمره بتركها ، ومنعه من صُحبتها فشق ذلك عليه ، وضاق صدره ، ولم يجسر أن يجتمع بها !

---

(١) الملح : الملاَحَة وقوامها كالقضيب والعود فى استقامته ، ونصفها الأسفل كالكثيب الرملى .
(٢) أى كما يفوق بدر السماء نجوم الدجى .
(٣) الأحوى : الأسمر الشفتين أى : وغزالا أحوى .
(٤) القينة : الجارية .

فلما طال ذلك بينهما أهدت له مع بعض الخدم «كُرَة عَنْبر» فكسرها فوجد فى وسطها «زر ذهب» ففكر فيه ، ولم يعرف معناه ، واتفق حضور القاضى الفاضل» ، فعرض الأمر عليه وطلب منه تفسيرًا ، وبيانا شافيا ، يريحه من عناء التفكير ، فعمل القاضى الفاضل فى ذلك بيتين وأرسلهما إليه وهما :

أهدت لك العنبر فى وسطه

زرٌّ من التِّبر[1] دقيق اللحام

فالزرّ فى العنبر معناهما

زُرْ هكذا مستترًا فى الظلام !

(١٨)

هل فيكم عاشق ؟!

جاء فى زهر الآداب للحُصْرِى :

قال اليمانى ابنُ عمرو ، مولى ذى الرياستين : كان ذو الرياستين يبعث به ، وبأحداث [2] من أهله إلى شيخ بخُراسان ، ويقول :

تعلّموا منه الحكمة ؛ فكنا نأتيه ، فإذا انصرفنا من عنده أخذ ذو الرياستين، يسألنا عما أفادنا ، فنخبره !

فسرنا إلى الشيخ يوما ، فقال لنا : أنتم أدباء ، وقد سمعتم الحكمة ، وفيكم أحداث ، والآمال معلقة عليكم ؛ فهل فيكم عاشق ؟

قلنا : لا ، قال : اعشقوا ؛ فإن العِشقَ يُطْلِقُ الغبىّ ، ويفْتحُ جبلَّةَ البليد، ويُسَخّى كفّ البخيل، ويبعث على النظافة وحسن الهيئة ، ويدعو إلَى الحركة والذكاء ، وشرف الهمة، وإياكم والحرام !

قال : فانصرفنا ، فسألنا «ذو الرياستين» عما أفادنا فى يومنا فهبناه أن نخبره ، فعزم علينا [3] ، فقلنا له : أمرنا بكذا وكذا .

قال : صدق .

---

(١) التبر : الذهب . (٢) أحداث : جمع حدث ، وهم الناشئة . (٣) أمرنا .

(١٩)

إذا عُرف السبب بطَل العجب !!

عجب الطلاب مما قاله «ذو الرياستين» ، فقال لهم: أتدرون من أين أخذ هذا الأدب ؟

قالوا : لا ! قال :

إن «بهرام جور» كان له ابن رشحه للملك من بعده ، فنشأ ساقط الهمّة ، خامل المروءة ، دنيء النفس ، سَيِّيء الأدب ، كليل القريحة ، كهام[1] الفكر ، فغمّه ، ووكل به من المؤدبين والحكماء من يلازمه ، ويعلّمه الحكمة .

وكان يسألهم ، فيحكون له ما يسوء ، إلى أن قال له بعضُ مؤدبيه : قد كنا نخاف سوءَ أدبه ، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه

قال : وما ذلك ؟

قال : رأى ابنة فُلان «المرزبان»[2]، فعشقها ، فغلبت عليه ، فهو لا يهدأ إلا بها ، ولا يتشاغلُ إلا بذكرها .

فقال «بهرام جور» : الآن رجوتُ صلاحه ؛ ثم دعا بأبى الجارية ، فقال : إنى مسرٌّ لك سِرًّا فلا يعدُوَنَّك ، فضمن له ستره ، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته ، وأنه يريدُ أن يُنْكِحَهَا إياه ، وأمره أن يأمرها بإطماعه بنفسها من غير أن يراها أو تقع عينه عليها ؛ فإذا استحكم طمعه فيها ، تجنت عليه ، وهجرته !!

فإذا استعتبها[3] أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك ، أو منْ همتُه همة ملك ، وأن ذلك يمنعها من مواصلته ، ثم ليعلمه خبرها وخبره أولا بأول ، ولا يُطْلِعُها على ما أسَرّ إليه !

فقبل أبوها ذلك منه !

---

(١) الكهام : (بفتح الكاف) بطىء النصرة والحرب ، الجبان ، والعِيّ .

(٢) المرزبان ، رئيس الفُرْس ، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم ، وهو دون الملك فى الرتبة .

(٣) استعتبها : استرضاها ، وحاول إرضاءها .

ثم قال للمؤدب . خَوّفه بى ،وشجعه على مراسلة الجارية ففعل ذلك ، وفعلت الجارية ما أمرها به أبوها ، فلما انتهت إلى التجنى عليه ، وعلم الفتى السبب الذى كرهته من أجله أخذ فى الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية ، ولعب الصوالجة[1] ، والرماية ، حتى مهر فى ذلك .

ورفع إلى أبيه أنه يحتاج من المطاعم ، والآلات ، والدواب والملابس ، والوزراء فوق الذى كان له ، فسُرّ الملك بذلك ، وأمر له بما أراد ، ودعا بمؤدبه فقال :

إن الموضع الذى وضع ابنى نفسه فيه بحب هذه المرأة لرفيع فتَقَدّمْ إليه ، أن يرفع أمرها إلىّ ، ويسألنى أن أزوجه إياها ، ففعل !

فزوجه منها ، وأمر بتعجيل نقلها إليه ، وقال له :

إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئا حتى أصير إليك ، فلما اجتمعا صار إليه فقال :

يابُنىّ ؛ لا يضعَنّ منها عندك مراسلتها إياك ، وليست فى حبالك ، فأنا أمرتُها بذلك ، وهى من أعظم الناس منّةً[2] عليك ؛ بما دعتك إليه من طلب الحكمة ، والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغتَ الحدّ الذى تصلح معه للملك بعدى !

فزِدْها فى التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك !

ففعل الفتى ذلك ، وعاش مسرورا بزوجته ، وأصبح أبوه مسرورًا ، به وزاد فى إكرام «المرزبان» ، ورفع مرتبة قدره وعقد لابنه الملك بعده !

وبعد ... فتعال إلى «أروع ما تبادله المحبون من رسائل».بعد أن عايشنا «مشاهير العشاق ومعشوقاتهن» و«أعجب قصص الحب ».

---

(١) الصوالجة : جمع صولج ؛ عصا معقوف طرفها ، يضرب بها الفارس الكرة ، ويقول الشاعر :

كرة ضُرِبت بصوالجةٍ ... فتلقفها رجلٌ رَجُلُ

(٢) مِنّةً : فضلا .

الباب الثالث

أروع ما تبادله المحبون

من رسائلَ شعرية ، وعباراتٍ وُدِّيَّة

إذا لم يكن فى الحُبِّ سُخْطٌ ولا رضَى
فأين حلاَوَاتُ الرسائلِ والكتُب ؟!

(عباس بن الأحنف)

* تعيش فى هذا الباب مع ما يأتى :

أولا - رسائل شعرية متبادلة (خمسة عشر نموذجا)

ثانيا - ما كتبوه على العُنْوانات ، وسلكوا به سبيل المداعبات .
(اثنا عشر نموذجا)

ثالثا - بعض ما كتبه المحبون على الفصوص
(ثلاثة نماذج)

رابعا - ما نقشه أهل الهوى على خواتمهم . (أحد عشر نموذجا)

خامسا - مداعبات لغوية على الخواتم (نموذجان)

سادسا - ماوجد مكتوبا على ذيول الأقمصة ، وطرز الأردية ، والأكمام
(عشرة نماذج)

سابعا - ما وجد مكتوبا على العصائب .
(نموذج واحد)

ثامنا - ما وجد مكتوبا على الشتور والوسائد

تاسعا - ماذا يقول الورد للعاشقين ؟! (نموذجان)

الحب بعد وسائل الاتصال الحديثة

حُرِم المحبون والعاشقون لذة الشوق، والانتظار بعدما جدّ ما جَدّ من وسائل الاتصال الحديثة التى قربت البعيد ، وأزالت المسافات ، وأحيت مَيّتَ الآمال من جديد بعد أن كانت الرسائل هى الأمل الوحيد !

وكانت تلك «الرسائل المحروسة» تظل ذاهبة وآيبة بين المحبين والعاشقين ، وهم فى انتظارها على أحرَّ من الجمر !

فإذا بالتليفون المحمول ، و«الفاكس» وشبكات الاتصال الحديثة تقتحم الحواجز والسدود ، وإذا بها تصبح رهن الإشارة ، والبديل عن الزيارة !

وانتهى عصر استبطاء الرسائل ، وسؤال المحب «سِرْبَ القَطَا» أن يُعيرَه جنَاحه لعله يطير إلى من يحبه ويهواه !

ومع هذا فقد ظلّت «رسائل المحبين» ذات مذاق خاص ، تعبر عن أرق المشاعر ، وأحلى الأمانى ، وأجمل الأحلام ، وإن كانت لاتخلو من شكوى وعتاب ، وابتسامات ودموع !

فتعال نمتع أنفسنا بألوان من تلك الرسائل التى تصور النفس الإنسانية فى أرق مشاعرها .

أولا :رَسَائل شعرية

(١)

يقول الوَشّاء : أنشدنى بعض الأدباء :

هذا كتابُ مُتَيَّمٍ خَطّت إليك أنَامِلُه [١]
مَزَجَ المِدَادَ بَدمْعِه فبكَتْ عليه عَوَاذِلُه [٢]
أنَت الطبيبُ فدَاوِهِ يا مُبْتَلِيه ، وقاتِلُه

---

(١) المتيّم:من ذهب الحب بعقله ، واستعبده الهوى .
(٢) المِداد : الحبر الذى يكتب به ، والعواذل : من يَلُمْنَه فى الهوى .

(٢)

وقال آخر فى رسالة له إلى محبوبه يشكو الصبابة :

هذا كـــتـــابُ مُـــتَـــيَّم يشكو الصَّبَابَة [١] فى كتابهْ
فـــارْدُدْ عليـــه جـــوابَه كىْ يَسـتـريحَ إلى جَـوابهْ
لو كـــان ينطِقُ ذا الكتـــا بُ شكا إليك عظيمَ مَـابِهْ

(٣)

وقال آخر فى رسالة إلى محبوبته يطلب منها أن تصله فيقول :

صِلينى بالكتـــابِ وبالســـلام
وزُورِى زَوْرةً فـى كلِّ عـــــام
وجُـــودِى بالكتـــاب وعنونيـــه
إلى الصَّبِّ الكئيب المستهام [٢]

(٤)

وهذا محب يعبر عما كان لرسالة محبوبته من أثر فى نفسه فيقول :

لم يَزِدْنى الكتـابُ إلا اشـتـيـاقًا
واشتعالاً من الهوى فى ضَمِيرى
بأَبى أنتِ [٣] يا حـبـيـبـةَ قَلْبى
ومُنـاىَ وغَـــايتى وسُـــرورِى

(٥)

وهذا محب يمحو بدموعه سطور رسالة محبوبته ويسألها الرحمة !

قُـولاَ لمنْ كـتب الكتـابَ بكفّـه
ارحمْ - فديتُك - ذِلَّتى وخُضُوعى

---

(١) الصبابة : الشوق ، أو رقته وحرارته .
(٢) والمستهام : الذى هام على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتوجه .
(٣) بأبى أنت : أفديك بأبى .

مـازِلْتُ أبكى مُذْ قـرات كـتـابهـا
حـتى مَـحَـوتُ سُطُورَهُ بدمُـوعى

(٦)

ويقول الحسن بن وهب فى إحدى رسائله :

يَـا مُـنَـاىَ وسُـــــــرورى جُـهْـدُنا غـيـرُ يسِـيـرِ
والـذى نـشـكـوه فـى الـكُـتْـ ـبِ قَـلـيلٌ من كَـثِـيـرِ
لـم تُـطِـق أَلْـسُـنُـنَـا مِـن وَصْـفِـهِ عُـشْـرَ عـشِـيـر [١]
فـــثـــقِى - يا بأبى أنْـ ـتِ - بمكنون الضَّـمـيـر
ثم قـــولى مَطْلَع الجـــو زاءِ والشِّـعْـرَى العَـبُـور [٢]
حـــفـظ اللهُ فـــتًى با تَ لنا غَـيْـرَ سـمـيـر

(٧)

ويقول آخر :

كَـتَـبتِ إلىَّ يا رُوحى كـتـابًا
فـوافَقَ مُنْيَـتِى ، وبُلوغَ سُـولى [٣]
ولولا العَـيبُ هِمْت إليك لَمّـا
تناولتُ الكتـاب مِنَ الرَّسُـول
مـخـافـةَ نَظرةٍ من عَـيْنِ واشٍ
وتَشْنيع المقـالةِ بالحليلِ

(٨)

وهذا محب كان لكتاب محبوبته أثره فى إعادة الروح إليه ويصف ذلك فيقول :

---

(١) العشير : العشر .
(٢) الجوزاء : برج فى السماء ، والشعرى : الكوكب الذى يطلع فى الجوزاء . والشعرى العَبور : أحد نجمين بجوار الجوزاء ، والأخرى : الشعرى الغميصاء .
(٣) السُّؤْل والسّول : ما سألته .

لولا الكتابُ الذى جاء الرسولُ به

مِنَ الحبيبِ لذَابَ القلبُ واحْتَرَقَا

جـاء الرسـولُ على يأسٍ بموعـده

وقـد قَضيتُ فـاحْيـا لى به رَمَـقَـا

(٩)

وأنشد أبو عبد الله الواسطى :

كـتـبتَ إلىَّ تذكُـرُمـا تُلاقى

مـنَ الشَّـوقِ المبَـرِّحِ والفِـرَاقِ

لَعَـمْـرُك مـا اتّهـمْـتُك فى وِدادٍ

ولكنْ لم تُلاق كـمـا أُلاقى !

فُـؤادِى هـائم ، والـعينْ تَـذْرى

دمـوعـاً تَسْـتَـهلُّ من المآقى

وقـدْ ذُقْتُ الفِـراق وكـان مُـرّا

كـريهًـا طَعْـمُـه عند المَذَاقِ

علَى أنّى - وإن أبديتُ صَـبـرا

على حَدّ الصبابة - غـيرُ باقِ

(١٠)

وهذا منصور بن إبراهيم يكتب إلى محبوبته بماء الجفون :

كـتـبتُ إليك بماء الجـفُـون

وقلْبى بماء الهَـوَى مُـشْـرَبُ

فكَـفّى تَـخُطُّ ، وقـلْـبِى يُـمِلُّ

وعـيْنىَّ تمحـو الذى تكتُبُ

(١١)

** أنت التى **

بعث «ابن الدمينة» إلى محبوبته «أمامة» بثلاثة أبيات يلومها ، فردت عليه تبادله لوما بلوم ؛ إنه يقول :

وأنتِ التى كَلَّفْتنِى دَلَجَ السُّرَى
وجُونُ القطا بالجَلْهَتَيْن جُثُومُ [١]
وأنت التى قطّعْت قَلْبى حَزَازَةً
وقَرَّحْتِ قَرْحَ القَلْبِ فهو كليمُ [٢]
وأنت التى أحْفَظْت قَوْمِى فكلُّهُمْ
بعيدُ الرّضا ،دانى الصُدودِ ، كظيمُ [٣]

(١٢)

** وأنت الذى **

فأجابته أُمامة على وزْنها ورويّها :

وأنت الذى أَخْلَفْتنى ما وعدْتنى
وأشْمتَّ بى من كان فيك يلُومُ [٤]
وأَبْرَزْتَنى للناس ثم تَرَكْتَنِى
لهُم غرضًا ، أُرْمَى ؛ وأنت سليمُ [٥]

---

(١) الدَّلَج : سير أول الليل ، والسُّرى : عامته ، وإضافة الدّلَج إليه من إضافة البعض للكل . والجُون : الأسْود ، والجلْهتان : ناحيتا الوادى وطرفاه ، وجثم الطائر : ألصق صدرٌ بالأرض . والمعنى : من أجلك تكلفت الأسفار فى ظلمة الليل فأمر بأماكن لا يوجد فيها غير القطا .

(٢) الحزازة : الوجد الذى يقطع القلب . ويقال : قَرَّحْتُ الجرح : إذا قشرته قبل أن يبرأ ، والكليم: الجريح . ما يقطع قلبى غير الوجد بك .، وليس هناك من يجدد جراحه سواك .

(٣) أحفظَه : أغضبه . والكظيم : المملوء جوفه غضبا ، لقد أغضبت قومى علىَّ فكلهم بعيد الرضا عنى ، قريب الصد والهجر ممتلئ جوفه غيظا .

(٤) كما تلومنى ألومك فى خلف الوعد حتى شمت بى من كان يلومنى فيك .

(٥) لقد كشفت أمرى بين الناس حتى صرت لهم غرضا لألسنتهم وأنت سليم .

فلو أنَّ قولاً يَكْلِمُ الجسمَ قد بَدا

بِجِسْمِيَ من قولِ الوُشاةِ كُلُوم ! [1]

(١٣)

** رسالة إلى الحبيب العاتب ! **

قال عمر بن أبى ربيعة :

أيُّها العاتِبُ الذى رامَ هَجْرى

وبِعادى ، وما علمتُ بذاك!

قلتَ : أنتَ المَلُولُ فى غيْرِ شىءٍ

بئس ما قلت ، ليس ذاكَ كَذاكا

زَعَمُوا أننى بِغَيْرِك صَبٌّ

جعل اللهُ منْ أُحِبُّ فِداكَا !

فلو انّ الذى عتبتَ عليه

خُيِّر الناسَ واحداً ما عَداكا

ولو اسْطَاعَ أن يَقيكَ المنايا

- غير غَبْن - بنفسه لَوَقَاكَا

ولو أقسمت لا يُكلَّم حتى

عُمْرِ نوح - بعيشه ما عصاكا

فارضَ عَنّى جُعلتُ أفديكَ إنى

- والعزيزِ الجليلِ - أهوى رِضَاكا

(١٤)

** ومن رسائل الشوق للبهاء زهير **

يا كِتَابًا من حَبيب

أنا مُشْتَاقٌ إليه

---

(١) يكْلم : يجرح . ما أكثر تلك الجروح والكلوم التى أصابتنى وإن كانت غير ظاهرة !

جَـــاءَنى منه سَـــلامٌ

سَلّمَ اللـهَ عَلـيْـــــه

(١٥)

** أخطّ وأمحو ما خططت ! **

وهذا عباس بن الأحنف شاعر الغزل العفيف يكتب إليها شاكيا باكيا فيقول :

أخُطّ وأَمْحُو ما خَطَطْتُ بِعَبْرَةٍ

تسُحُّ على القرطاسِ سَحَّ غَروبِ [١]

✍ ثانيا :مَا كتبوه على العنوانات وسلكوا به سبيل المداعبات

(١)

* كتب أحدهم :

إلى سِتّى ومـــالكتى ورُوحى

من الجسدِ الطريح بغيرِ رُوحِ [٢]

(٢)

* وقال آخر :

إلى الشّمس المُنيـرة حين تبـدُو

غداة الدَّجْن [٣] من بين الغُيوم

من الصَّبِّ الكئيب أَخى التصابى

حليفِ الشوقِ مُحْتَبَسِ الغُموم

---

(١) الغَروب - بفتح الغين : الدلْو .

(٢) السِّت : السيدة ، وجمعها ستات ، وهى مولّدة وقد يراد بها يا ست جهاتى !

(٣) الدّجنُ : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء ، ويقال . يومُ دَجْنٍ ، ويوصف به فيقال : يومٌ دجْنٌ .

(٣)

* وقال آخر :

مِنَ الدَّنِفِ [١] الذى يُضْحى حزينًا

وبين ضُلُوعه قلْب مُصَابُ

إلى الخَوْد التى ابْلتْ شبابى

فأضحى ما يسيغُ لىَ الشرابُ [٢]

(٤)

* وقال آخر :

مِنّى إلى قلبى ، ولم أر كاتبًا

يخُطّ بأقلامٍ إلى قَلبِه قبْلى

أرى كُلّ شىءٍ باليًا متغيّرًا

وحُبُّك لا يبْلَى ولكنه يُبلِى

(٥)

* وقال آخر :

مِنّى إليكِ فإنى هائمٌ دنِفُ

أخو السّقَامِ برانى الشوقُ والأسفُ

النفسُ ذاهبة ، والعقْلُ مُخْتَلَسٌ

والقَلبُ مُحْتبَسٌ ، والروحُ مُخْتطَفُ

(٦)

* وقال آخر :

مِنّى إليك فما وَجْدى بُمنْصَرِمٍ

حتى المماتِ ، وما قلبى بمعذورٍ [٣]

---

(١) الدنف : الذى أدنفه الحب وأمرضه .
(٢) الخَوْد : الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق .
(٣) بمنصرم : بمنقطع ، ومنتهٍ .

ولو رأيتك يومًا لانقضى حَزَنى

وعاد عَيْشِىَ صَفْوًا بعد تكدير

(٧)

* وقال آخر :

مِنِّى إليك فـــإنى هَائِمٌ قَلقٌ

حليفُ همٍّ ، قرينُ العين بالسَّهَدِ

اللهُ يعلمُ مـــا بالقلب من قَلَقٍ

إذا نأيْتِ ، وما ألقاهُ من كمَدِ (١)

... وختاماً !!

(٨)

* ومما ختموا به رسائلهم :

عليك ســـلامٌ لاســـلامَ مُـــوَدِّعٍ

ولكنْ سلامٌ لم يكنْ آخرَ العهدِ

سلامُ مُحِبٍّ خانهَ حُسْنُ صبرِه

فأصبحَ فى كرْبِ الحياةِ وفى جَهْدِ

(٩)

* وقال آخر :

عليك ســـلامُ الله أمـــا قلوبُنا

فَمَرْضى ، وأمـا وُدُّنا فصَحيحُ

نَبِـيتُ بوُدٍّ خـــالصٍ وصـــبابةٍ

ونغـــدو بِحُبٍّ صـــادقٍ ونَروحُ

---

(١) نأيت : بعدت . والكمد : الحزن.

(١٠)

* وقال آخر :

عليك سلامُ الله قَدْ مُتُّ صَبْوةً

ومالِي عَزاء مُذْ نأيتِ(١) ولا صبْرُ

أرى الصبرَ عنكم كاسْمِهِ مُذْ نَأَيْتُم

فقد - وجلال اللهِ - ضاق بى الصَدْرُ

(١١)

* وقال آخر،

عليك سلامُ اللهِ قدرَ صَبَابَتِى

إليك وشوقى ، إننى مُدْنفُ القلبِ (٢)

أَبِيتُ حليف الهَمِّ والوَجْدِ والأسَى

رهينَ يَدِ الأحزانِ والشَّوْقِ والكربِ

(١٢)

* وقال آخر :

عليك سلامُ اللهِ ما حَنَّ آلفٌ

وما اشتاق ذو وَجْدٍ ، وما طلع الفَجْرُ

سلامُ مَشُوقٍ نحوكم متطلعٍ

أخِى حَسَراتٍ خانه فيكمُ الصَّبْرُ

❀❀❀❀❀

(١) نأى : بعد.

(٢) مُدْنَفُ القلب : من أمرضه الحب وأسقمه .

✍ ثالثا :بعض ما كتبه المحبون على الفصوص :

(١)

* كتب أحد المحبين على خاتمه

مـــــا عَلَيْنا مـن جُنَاحْ فـى هَوَى البِـــيضِ المِلاح

(٢)

* وكتب آخر :

أُحِبُّ مَـن يَـهْـــــــوَانـى بـرغـم مَـنْ يَـنْـهَـــــــانِى

(٣)

* وكتب آخر :

تحت ثيـــابى بَـدَنٌ نـاحِل وفى فُـؤَادى شُـغْلٌ شـاغِل

✍ رابعا : وما نقشه أهل الهوى على خواتمهم :

(١)

* مَن كثرت لحظاتهُ دامت حَسَرَاتُه!

(٢)

* مَن تداوى بدائه لم يَصِلْ إلى شِفائه !

(٣)

* مَن قدّم هواه دام أساه!

(٤)

* العقل عند الهوى أسير ، والشوقُ عليهما أمير .

(٥)

* إذا كثر الجفاء قل الوفاء .

(٦)

* مَن مُنع من الوصال قَنع بالخيال .

(٧)

* آفة الحبيب نظر الرقيب.

(٨)

* آفة الغَزَل سُرعة الملل.

(٩)

* ذهب الفراق بحيلة العُشاق .

(١٠)

* كأس الهجْر أمرُّ من الصبْر

(١١)

* طول الجفاء يكدر الصفاء .

✍ خامسا : مداعبات لغوية:

(١)

كان الحَسن بن وهب قد تعشق جارية يقال لها : «ناعم» فقلب اسمها ، ونقش على خاتمه : «مُعَان» ، وذكر ذلك فى أبيات يقول فيها :

نَقَشْتُ «مُعَانًا» على خاتَمى

لِكَيْمَا أُعَانَ على ظالمى !

كـــــــذا اسمُ مـن هـام قـلـبـى بـه

وأصـبـح فى حـــالـة الهَـــائـمِ

نكَسْتُ الـهـــجـــاءَ فـــأعلنتُـــه

بطرْفى ليَخْفَى على الحازم [1]

(٢)

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يحب بعض جوارى القيان ، ثم تنكّر لها ، فكتبت على الخاتم لفظا تُعَرّضُ له فيه بالعتاب ، فبلغه ذلك ، فكتب على خاتمه : ضدّ ما كتبت ، فبلغها ، فمحت ما كان على خاتمها ، وكتبت ضد ما كتب ، فبلغه ذلك ، فمحا ماكان على خاتمه ، وكتب ضد ذلك فى أبيات يقول فيها :

كـتَـبتْ على فَصِّ لِخَـاتَمِـهـا ... مَن مَلّ من أحـبـابِه رقَـدَا

فكتبتُ فى فَصِّى ليَبْلُغَها ... مَن نام لم يَشْعُر بمن سَهِدا

فمحتـه واكتتبت لتبْلُغَنى ... مـا نام من يَهْوَى ولا هَجَدا

فـمـحَـوتُه ، ثم اكـتَـتَـبْتُ ... انا - والله - لا كلمـتُـه أبَدَا

✍ سادسا : ما وُجد مكتوبًا على ذيول الأقمصة وطُرز الأردية والأكمام :

(١)

* قال الماوردى : رأيت جارية ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة ، لم أشك أنه عاشق لها ، وإليها مائل لما رأيت من حركاته إذا نظرت ، وسروره إذا نطقت ، وكانت فوق وصف الواصف من الحسن والجمال ، وعليها قميص موشح مكتوب فى وشاح القميص :

---

(١) نكست : قلبت .

أغِـــيبُ عنكَ بودٍّ لا يُغَـــيِّـــرُه

نأىُ المَحلّ ، ولا صَـــرْف من الزّمن

تعَـــتَلّ بالشُّـــغْل مـــا تُكلِّمنا

الشُّغْل للقلْبِ ؛ ليس الشُّغْل للبَدَنِ

(٢)

* وعلى طراز الرِّداءِ :

أقلُّ الناس فى الدنيـــا ســـرورًا

مُـحِبٌّ قـد نأى عنه الحـبـيب

(٣)

* قال : ورأيت جارية لبعض الهاشميين ، يقال لها : «عَريب» عليها قميص مُلْحم ، مُوَشَّحٌ بالذهب ، مكتوبٌ فى وشاحه :

وإنى لأهواه مُـسِـيـئًـا ومُـحْـسِنَا

وأقْضى على قلبى له بالذى يقضى

فـحـتى مـتى روحُ الرضى لا ينالُنى

وحتى متى أيَّامُ سُخطك لا تمضى ؟!

(٤)

* قال وعلى طراز كمه :

إذا صَدّ من أهوى وأسلمنى الضّنى

ففُرْقةُ من أهوى أحرُّ من الجَمْرِ!

(٥)

* قال : ورأيت على قميص جارية :

زفـــــراتى لـيسَ تَفْنَى وفـــؤادى بك مُـــضْنَى

أتـرَضّـــــــاك وأُبْـدى لـك حُـــــــــسْـنَـا

بِـــأَبِـــى كـــم اتمـــنّـــى وإلـــى كَـــمْ أتَـــمَـــنَّـــى ؟!
بعـــدمـــا أصـــبح قلبى فى يَدِ الأحـــرار رهنـا ؟!

(٦)

* قال : ورأيت في صدر قميص الجارية «تباريح» الكوفية مكتوبا بالفضة والذهب سطرا وسطرا :

يا فـــتى ! قلتُ إذْ دَعَـــانِى هواه
مـــستـجـيـبًـا لصوته : لَبَّيْكَا
مـــا بكت مُـقْلتى لفـــقـــدك إلا
جَـزَعًـــا أن أمـــوت شـــوقًـــا إليكا

(٧)

* قال : ورأيت مكتوبا :

يارامـيًا ليس يَدرى مـا الذى فـعَلا
أَمْسِك عليك فإن السَّهْمَ قد قتلا
أصبتَ أسودَ قلبى إذ رميْت فلاَ
شُلّتْ يمينُك انّ صَـيَّـرْتَنِى مـثَـلا

(٨)

* قال : وأخبرنى بعض أصحابنا قال : أخبرنى من رأى فى ذيل جارية الحسن بن قارن :

احـــسَنُ مـــا خلق اللـ ـه ومـــا لم يَخْلُقُـــهْ
شكوى فـــتـــاةٍ وفَـــتًى يَعْشَـقُـهـا وتَعْشَـقُـهْ
نـار الهَـــوَى دانيـــةٌ تَحْـرِقُـهـا وتَحْـرِقُـهْ
يـاحَـــبَّـــذَا الحُبُّ إذا دامتْ ودامتْ حُـــرُقُـــه

(٩)

* قال.وكتبت إحدى الجوارى على وشاح قميصها :

إذا وجدتُ لهيبَ الشوقِ فى كبدى
أقبلْتُ نحوَ سِقاء القومِ أبْتَرِدُ
هَبْنِى طفئتُ ببَرْد الماء ظاهرَه
فمَنْ لِحَرٍّ على الأحشاء يتَّقدُ؟!

(١٠)

قال : وكتبت جارية على رداء لها مُمسّك :

مَنْ أَلِفَ الحُبَّ بكى
من شفّه الشوقُ شكا
من غاب عنه إلفُه
أو صدّ عنه هلكا
يامالكًا عذّبنى
بجَوْرِه إذْ ملكا
رِفْقًا بمملوكك مَا
يَحلُّ ذا الظُّلْمُ لكَا

✍ سابعا : ما وجد مكتوبا على العصائب

(١١)

كتبت إحدى الجوارى على عصابتها :

عذّبَه بالهَجْر مولاه وزاده شوقًا وأضناه
فدمعُه يَجْرِى على خَدِّه ولم تَنَمْ للوَجْدِ عيناه
قد كتب الحُبُّ على قَلْبِه مُتْ كمَدًا ، يرحمك الله !

✍ ثامنا : ما وجد مكتوبا على الستور والوسائد:

(١)

كتب موسى الهادى بن المهدى على ستره

يـاأيهـا الـزاعمُ الـذي زعـمـا ... أن الهـوَى ليس يُورِثُ السَّقـمـا

لو أنّ مـا بـى بك الغـداةَ لَمَـا ... لُمْتَ مُـحِـبّـا إذا شكا ألَمَـا

(٢)

**** وكتب بعض الظرفاء على مخدة له :**

ياراقِدَ الليل مِمَّن شَفَّهُ السّقَمُ

وهدَّه قلقُ الأحـــزانِ والألَمِ

جُدْ بالوصالِ لمن أمسيتَ تملكُه

يا أحسنَ الناسِ من قَرْنٍ إلى قدمِ

✍ تاسعاً : لغة الورد لدى المحبين!

للورد لغة يفهمها المحبون ، ولكل لغة مفرداتها فماذا تعنى تلك المفردات ، وتلك الرسائل الوردية ؟

(١)

يقول الشاعر فى البنفسج :

أهدت إليه ،بنفْسَجًا، يُسْلِيهِ

تُنْبِيهِ أن بنفْسِها تَفْدِيهِ

فارتاح بعد صَبَابةٍ وكآبةٍ

ورَجا لحُسن الحظّ أن تُدنيهِ

(٢)

ويقول الشاعر فى الآس :

سُـــر بـ «الآس» [١] الذى أهدتْ له

ثـم لمـا أهـدت الـوَرْدَ جَـــــــزِعْ

ذاك أن «الآس» بـــــاق دائـــــمٌ

ولأن «الورد» حـــــينًا ينقطعْ

(٣)

وفى هذا المعنى يقول أبو دلف :

أرى وُدكُم كـــالوَرْد ليس بدائم

ولا خيـرَ فيمن لا يَدُومُ له عـهدُ

وحُبّى لكم كالآس حُسْنًا ونَضرة

لـه زهـرة تبـــــقـى إذا فنـى الورد

(٤)

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

إنّ لى عندَ كلّ نفـحـةِ رَيْحَـا

نِ من الجَلّ أو من الياسَمينا [٢]

التـــفـاتًا وروعـــة لكِ أرجـــو

أن تكونى حَلَلْت فـيـمـا يلينا

(١) الآس : شجر أبيض الزهر، أو ورديّه ، عطري. (٢) الجَلّ - بفتح الجيم - زهرة عرف الديك .

(٥)

الوَرْدُ والآسُ !

أهدت إحْدَاهُن إلى محْبُوبها «غُصْن آس»[1] فسُرَّ به وكتب إليها يقول :

والآسُ يبقى ، وإن طال الزمانُ به

والوردُ يفْنى ، ولا يبقى على الزَّمَنِ

(٦)

وأهدت له «وردًا» ، فقال :

أنتِ وَرْدٌ وبقـــاء الـ ـوَرْدِ شَـهـرٌ لا شُـهـورْ

يـذهبُ الـوَرْدُ ، ويَـفْنَـى وإلى الآسِ نَـصـيـرْ

(٧)

وقد جمع أحد المحبين بين الورد والآس فقال :

وصَلَتْ ، وكـان الـورْدُ أولَ مـابَدَا فلمـا تولّى الورْدُ ، ولّت مع الوَرد!

فـيـاليتَ أن الوَرْدَ آسٌ فـإنه يدومُ على الحالَيْن فى الحَرِّ والبَرْدِ

(٨)

رَدّ على من أهدى سَوْسَنًا !

وأهدى حبيب «سَوْسنًا»[2] فكتب إليه يقول :

يـاذا الّذى أهـدى لنـا سَـوْسنـا

مـا كُنْت فى إهدائه مُـحْـسِنَا

أوّلُه : سُـوءٌ ؛ فـقـد سـاءنى

يـاليتَ أنّى لم أرَ السَّـوْسنـا !

---

(١) الآس : شجر دائم الخُضرة ، بيضيّ الورق ، أبيض الزهر ، أو ورديه ، عِطريّ ، وثماره لبية سود، تؤكل غضة ،وتجفف ، فتكون من التوابل .

(٢) السَّوْسَنُ : نبات مُعَمِّر ، ينبت فى أوربّة ، وبلاد البحر المتوسط . وتعرف بعض أصنافه بجذور الطِّيب ، لأنها عطرية ، وتختلف لون زهرته الجذابة باختلاف النوع ؛ فمنه الأبيض ، والأزرق ، والأصفر ، والأحمر ، ويطلق على الجميع : الزنبق .

(٩)

شقائقُ النُّعمان والورد !

و«شقائق النُّعمان» نبات أحمر الزهر ، مبقع بنقط سود وله عند العرب مكانة ومكان ، وكان اسم هذا النبات «الشُّقَّارَى» فلما أحبّه النّعمان نسبوه إليه أما العاشقون فهم لايحبونه كما يقول أحدهم :

لا يُحِبُّ الشَّقَائِقَا كُلُّ مَن كان عاشقَا
إنّ نِصفَ اسمِه شقا ءٌ ، إذا فُهتَ ناطقَا

(١٠)

ويعبر أحد المحبين عن مشاعره تجاه «شقائق النُّعْمانِ» فيقول :

لا تَرَانِى طُولَ دَهْـ ـرِيَ أهْوَى الشَّقَائِقَا !
إن يكنْ يشبِهُ الخُدُو دَ ، فنِصْفُ اسمه : «شَقَا !»

(١١)

وأخيرا يرى المحب فى الوردِ خدودًا أضيفت بعضُهن إلى بعض ، ولا ينسى أبدًا تلك العشية التى حَيَّاه فيها محبوبُه بورد ، فيقول :

عَشِيَّةَ حيّانى بوردٍ كأنه
خدودٌ أضيفت بعضهُن إلى بعض !

(١٢)

ولا ينسى أحد المحبين أن يقارن بين ورد الحدائق وورد الخدود فيقول :

يضحك الوَرْدُ إلى وَرْ دٍ بخدَّيْكِ مُقيمِ
غيرَ أن المِسكَ أولى بكِ فى كل نَسِيمِ

وبعد .. فتعالَ إلى أحلى ما يُرْوى عن المحبين من طرائف !

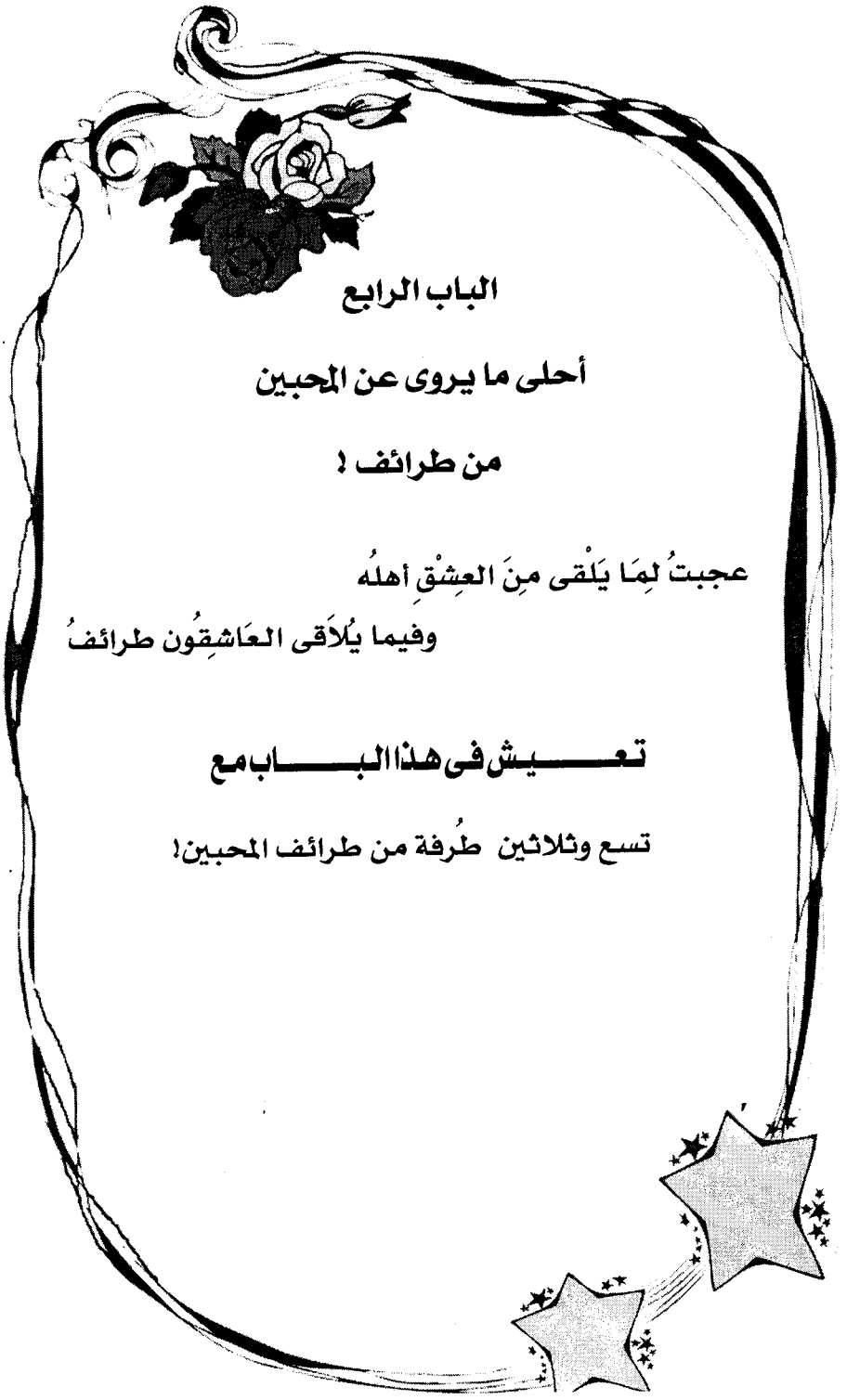

الباب الرابع

أحلى ما يروى عن المحبين

من طرائف !

عجبتُ لِمَا يَلْقى مِنَ العِشْقِ أهلُه

وفيما يُلاَقى العَاشِقُون طرائفُ

تعـــــيش فى هذا البـــــاب مع

تسع وثلاثين طُرفة من طرائف المحبين!

نزهة على شاطئ الحُب !

(١)

** الحُبُّ والفَقْر ! **

* من طرائف المحبين ما أنشده بعض الأدباء :

وإذا قُلتُ لَهَـــا : جُـــودى لِمـنْ

قــد بَرَاهُ الحُبّ ، قــالت لى : أَجَلْ

أنت صَـــرّافٌ ؛ فـــآتيك له

أم بكفـــيك نُقُـــودٌ تُحْـــتَـــمَلْ

قلت : مـــا تَهْـــوَيْن إلا مُـــوسِـــرًا

ذا هِبَـــــاتٍ (١)، وعَـطَاءٍ ، وحُـلـلْ

فـــأجـــابتنى بصـــوت مُـــسْـــمِع :

كُفّ عَنّا ، أنت . والله - مُـــقِلّ (٢)

أيهَـــا النـاسُ ، ألا أخـــبـــركمُ ؟!

ليس للحُبّ مع الفـــقـــر عَـــمَلْ !

(٢)

** الرِّضى بالقَليل ! **

من المحبين من يقنع من محبوبه بالقليل ، ولو باللقيا ، والنظرة العَجْلى ، وبالمنى ، وبالأمل المرجوِّ خاب آمله ، وبلاَ ، فكل شىءٍ من المحبوب جميل !

* ويقول المتنبى :

وقَنَعْتُ باللُّقْـــيَـــا ، وأولِ نظرةٍ

إن القليلَ من الحـبـيبِ كَـثـيـرُ !

---

(١) ذاهبات : صاحب أعطيات وكرم .

(٢) مُقِلّ : قليل المال فقير ، أو بخيل .

* ويقول الموّصلى :

إنّ مَـــاقَلّ منكَ يكثُـــر عِنْدى

وقليلٌ مِـمّن يُحَبُ كـثـيـــر !!

* ويقول جميل:

وانى لَيُـرْضِـينى قليلُ نَوالكمْ

وإن كنتُ لا أرضَى لكُم بقليل

* ومثله لتوبة :

وأقنـعُ من لَيْلَى بما لا أنَالُه

ألا كلُّ ما قَـرَّتْ به العينُ صالحُ

* ويقول آخر :

جُـودُوا علىّ بمنطقٍ أَحْـيـا به

إن القليلَ منَ المحبِّ كـثـيـر !

(٣)

** سيبويه المغربى **

* لسيبويه المغربى بيتان فى الغزل يحملان الطابع النحوى فيقول :

عَـذّبتِ قلبى بهَـجْـرٍ منك مُـتَّـصِلِ

يامن هواه ضـمـيـرٌ غـيـرُ مُنْفَـصِلِ

مـازال من غـيـرِ تأكيـدٍ صُدودُك لى

فـمـا عُـدولُكِ من عَطْفٍ إلى بَدلِ؟!

وهو كما ترى يشير إلى الضمير المتصل والمنفصل ، كما يشير إلى ثلاثة من التوابع هى : التأكيد والعطف والبدل .

(٤)

** قد بلغ العشق مُنتهاه! **

من منا لم يعشق ذات يوم ، ولم يبلغ العشق به منتهاه ؟!

ولكن .. ماذا بعد أن يبلغ منتهاه ؟!

قال «أبو العز المظفر الأعمى» دخلت على الملك الكامل فقال لى : أجز هذا النصف من البيت (أى : أكملْه) :

قَـدْ بَلَغ العِـشْقُ مُنتْـهـاهُ

فـقـلـت : ومـادرى العُـشـاقُ مـا هُو ؟!

فـقـال : ولَمَّـا غَـرَّهم ذُهُولى

فـقـلـت : هـامُـوا بـه ، وتـاهُـوا

فـقـال : ولى حـبـيـبٌ يَرْعَى هَوَاىَ

فـقـلـت : ومـا تـغَـيَّـرْتُ عن هَوَاهُ

فـقـال : رياضة النفسِ فى احتمالِ

فـقـلـت : ورَوْضَـتُـهُ الحُسْنُ فى حُـلاَهُ

فـقـال : أسـمَـرُ لَدْنُ القَـوام أَلْمى [1]

فـقـلـت : يَعْـشَـقُـه كُلُّ مَن يَرَاهُ

فـقـال : لَيلتُـهـا كُلُّهـا رُقـادٌ

فـقـلـت : وليلتى كلُّهـا انتـبـاهُ !

وترى أن مظفر الدين قد أكمل البيت بما قد يجافى السلطان «الملك الكامل» رحمة الله عليه !

(٥)

** شاعر يتغزل فى مُسَحِّرة ! **

فى القرن الثامن الهجرى رأينا شاعرا يتغزل بمن كانت تقوم بعمل «المُسَحِّراتى» ، وتوقظ الناس من نومهم ليتَسَحَّرُوا !

(١) اللمى : سمرة محببة فى الشفاه !

ويصفها بأنها «شمس» تطلع وقت السحور ويعجب من أولئك الذين تطلع عليهم ، كيف يأكلون والشمس طالعة ؟!

إنه يقول :

عجبتُ فى رمضانَ من مُسَحِّرةٍ

قالت ، ولكنها فى قولها ابتدعت !

«تَسَحّروا يا عبادَ الله» ! ، قلت لها :

كيف السحور ، وهذى الشمس قد طلعت ؟!

(٦)

** أَفْتِنَا فى قواتل الأحداق ! **

«أبو بكر محمد بن داود الظاهرى» كان فقيها أديبا شاعرا ظريفا !

ويحكى «ابن أبى الدنيا» أنه حضر مجلس «محمد» المذكور قال : فجاءه رجل ، فوقف عليه ، ورفع له رقعة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة !

ثم قلبها ، وكتب على ظهرها ، وردها إلى صاحبها ، فنظرنا ، فإذا الرجل «على بن العباس» المعروف بابن الرومى الشاعر المشهور، وإذا فى الرقعة :

يا بنَ داودَ يافقيهَ العِراقِ

أَفتِنا فى قَواتِلِ الأحداقِ

هل عَلَيْهِنّ فى الجروح قصاصٌ

أم مُبَاحٌ لها دَمُ العُشّاقِ ؟!

وإذا الجواب من نفس بحر البيتين السابقين (الخفيف) :

كيف يُفتيكُم قتيلٌ صَريعٌ

بسهامِ الفِراق والاشتياق ؟!

وقتيلُ التّلاقِ أحسنُ حالاً

عند «داودَ» من قتيلِ الفِراقِ !

(٧)

** بيت يدعيه كل من سمعه ! **

«يعقوب بن عبد الرحمن المخزومى» شاعر مكة ، وصاحب «عمر بن أبى ربيعة» نظم قصيدة منها هذا البيت :

هل تَعْلَمين وراء الحُبِّ منزلةً تُدْنى إليكِ ، فإن الحُبَّ أقصانى ؟!

* وما أن سمعه «ابن أبى مرة» شاعر المدينة حتى ادعاه لنفسه ، وبعث به إلى بعض أدباء مكة مع بيت آخر ، فقال

هذا كتابُ فتًى طالت بَلِيَّتُه

يقول : يا مُنْتَهَى بَثّى وَأحْزانى

هل تعْلمين وراء الحُبِّ منزلةً

تُدْنى إليك ، فإن الحبَّ أقصانى

فوجهوا بهما إلى «عامل المدينة» وأطلعوه على سرقته للبيت الثانى ، فأدّبه على سرقته .

* ثم جاء بشار بن بُرد ، فادعاه لنفسه فى قصيدة غزلية ثم بعث به إلى قَيْنَةٍ كان يهواها فقال :

هل تعلمين وراء الحب منزلة

تُدْنى إليك فإن الحُبَّ أقصانى ؟!

فكتبت إليه تقول :

نعم أقول : وراء الحُبِّ منزلة

حُبّ الدنانيرِ ، يُدْنى كُلَّ إنسان !

من زاد فى النَّقْدِ زدْنا فى مَوَدّته

لا نبتغى - الدَّهرَ - إلا كُلّ رُجحانِ !

* حتى إذا كان العصر الحديث شطر الأستاذ طاهر الطناحى هذا البيت فقال :

«هل تعلمين وراءَ الحُبّ منزلةً»

أو مثل ما أشتكى شكوى لإنسان ؟!

لَهْفِى على سِنَةٍ فى الليل حَالِمةٍ

تُدْنى إليك ؛ فإن الحُبّ أقصانى !»

(٨)

** تَذْكِرة - «تشخيص حالة» **

وهنا يصف «من هو عالم بأحوال الهوى» أعراض الحب لمريض مُدْنَفٍ (اشتد مرضه وأشفى على الموت) ، وحار أطباؤه فيه ، فيقول :

يأَيُّها الدَّنِفُ المعَذّبُ بالهَوَى

إنّى بأحوالِ الهَوَى لعليمُ

الحُبُّ صاحبُه يَبيتُ مُسَهَّدًا

ويطيرُ عنه فُؤادُه ، ويهيمُ

الحُبّ داءٌ قد تَضَمّن فى الحَشَا

بينَ الجَوانح والضُّلوع مُقيمُ

الحُبُّ لا يخفى ، وإنْ أخْفَيْتَه

إن البُكاء - على المحب - نَمُومُ (١)

الحُبُّ : فيه حلاوةٌ ومَرارَةٌ

والحُبُّ فيه شقاوةٌ، ونعيمُ

الحُبُّ : أهون ما يكونُ مُبَرِّحٌ

والحُبُّ أصغرُ ما يكون عظيمُ

❀❀❀❀❀

(١) ينم على المحب ، ويكشف أمره ، ويظهر ما كان خافيا .ونَموم صيغة مبالغة على وزن فَعُول كصبُور ، وكَذُوب !

(٩)

** وتَذْكِرة - علاج **

هذه «تذكِرَة» حررها شعرا طبيب مداوٍ ، له فى الحب تجربة !

وإذا كنا نسأل المجرب ، ولا ننسى الطبيب المعالج فما بالنا بمن كان طبيبا مجربا ؟!

إنه يقول :

مَن سَـــلاَ عنك فـــاسْلُهُ
لك فى الناس مِـــــثْلُهُ
لا تَقُـــولَنّ : لِمْ ، ورُبَّمـــا
وعَـــــــسَى، أو لَـعَـلّـهُ
فـالعَـسَى يَعْـقِـدُ الهَـوَى
والتَّـــــعَـــــزى يَـحُلُّـه
كل حـبٍّ إذا انـقـــــضى
بـعـــضُـــــه ، هان كُلُّهُ

(١٠)

** مصاحبة المحبوب على الدوام ! **

ومن عَـــجبٍ أَنِّى أَحِنُّ إليـــهمُ
وأسالُ عنهم مَن لَقِيتُ وهم معى !
وتطْلُبُهم عَيْنى وهُمْ فى سوادها
ويشتاقهم قلبى ، وهم بين أَضْلُعى !

(١١)

قرب المحبوب من الروح !

يامُـقـيـمًـا فى خـاطرى وجَنَانِى

وبعـيـداً عن ناظرى وعِـيَـانِى !

أنـت روحـى إن كـنـتُ لَسْتُ أُراهـا

فـــــهى أدنـى إلىّ مـن كل دانـى

(١٢)

حضور المحبوب عند المحب دائما !

خيالُك فى عَيْنى ، وذِكْرُك فى فَمِى

ومَـثـواك فى قلبى ، فـأين تَغِيبُ ؟!

(١٣)

قرين السوء !

ضاق أحد الأزواج بزوجته ذَرْعًا ، وعجزت وسائله عن إصلاح ما بينه وبينها فقال فيها :

لقد كنتُ محتاجًا إلى مَوْتِ زَوجتى

ولكنْ قـرينُ الســوءِ باقٍ مُـعـمَّـرُ

فيَالَيْتهَا صارتْ إلى القبْر عَاجلاً

وعــذّبهــا فــيــه نَكِيــرٌ ، ومُنكَرُ

(١٤)

** لفت نظر ! **

كانت لأحد الشعراء تجربة قاسية مع من وقع نظره عليها فأحبها ، ولكنها ردته ؛ فقال فيها :

جـاريةٌ أعـجـبـهـا حُـسْنُهـا ... ومـثلُهـا فى الناس لم يُخْلَق
خَـبَـرْتُهـا انى مُـحِبٌّ لهـا ... فـأقـبلت تضـحك من مَنْطقى
والتـفـتت نحـوَ فـتـاةٍ لهـا ... كالرّشأ الوسنانِ فى القُرطقُ (١)
قالت لها : قولى لهذا الفتى : ... انظر إلى وجـهك ، ثم اعـشَقِ!!

(١٥)

** المحِبُّ بين الحذر والنظر ! **

يُحْكَى أن أحدهم مَرِض محبوبهُ فعادَه ، فمرض من وقته !

فعوفى محبوبهُ ، فجاء يعوده ، فلما رآه عوفى من وقته وأنشد :

مَـرِض الحـبـيـبُ فـعُـدتهُ
فـمرِضت من حَذَرى عليـه (٢)
وأتَى الحـبـيـبُ يعـودُنى
فَـبـرِئْتُ من نَظرى إليـه !

(١٦)

** حب شفهى ! **

تزوج «زهير بن مسكين الفهرى» جارية ، ولم يكن عنده ما يُرضيها به ، فلما أمكنته من نفسها ، لم ترعنده ما ترضى به ، فذهبت ، ولم تعد !

فقال فى ذلك شعرا :

تقـول - وقـد قـبَّلتُـهـا ألفَ قُـبلةٍ
كفـاك ! أما شىءٌ لديك سوى القُبَلْ ؟!

---

(١) الرشأ : الغزال . الوسنان : الناعس . القُرطق : القُرْط .
(٢) فى رواية أخرى : من وجدى عليه .

فقلت لها : حُبّ على القلبِ حفظهُ

وطولُ بكاءٍ تَسْتَفِيضُ له المُقَلُ

فقالت : لعمْرُ اللهِ ؛ ما لذّةُ الفتى

من الحُبّ فى قولٍ يخالفهُ الفِعل

(١٧)

** تجربة زوجٍ اثنتين ! **

قيل لأعرابى : من لّم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش ؛ فتزوج امرأتين فندم على ما فعل ؛ وقال :

تزوجتُ اثنتين لفَرْط جهلى

بما يشْقى به زوجُ اثنتين !

فقلت : أصيرُ بَيْنَهُمَا خروفًا

أُنعَّمُ بين أكرمِ نعْجتينْ !

فصرتُ كنعجةٍ تُضْحِى وتُمْسِى

تَدَوَالُ (١) بين أخبثِ ذئبتين!

رضا هَذِى يُهيجُ سُخْطَ هَذِى

فما أعْرى من احدْى السُّخْطَتَيْن

وألقْى فى المعيشة كُلَّ ضُرّ

كذاك الضُّر بين الضَّرّتَينْ

لهذى ليلة ، ولتلك أخرى

عتاب دائم فى الليلتين (٢)

---

(١) أى تتداول ، وتتناوبها ذئبتان وتتداولانها . (٢) الأمالى ؛ لأبى على القالى .

(١٨)

** والتقينا كما اشتهينا ! **

يقول الشريف المرتضى :

ضنَ عَنّى بالنَّزْر إذْ أنا يقظا
نُ ، وأعطى كثيرهُ فى المنام
والتقينا كما اشتهينا ولا عَيْ
بَ سوى أن ذاك فى الأحلام
وإذا كانتِ الملاقاةُ ليلاً
فالليالى خير من الأيام

* وهذا من قول أبى تمام :

اسْتَزارَتْهُ فكرتى فى المنام
فأتانى فى خُفْيَةٍ واكتتامِ
يالها زورةً تلذّذَتِ الأرْ
واحُ فيها سراً من الأجسام
مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ
غيرَ أنّا فى دعوة الأحلام (١)

(١٩)

** مُزَاح ودَلال ! على طريقة الفقهاء ! **

قال الشافعى رضى الله عنه :

تزوجت امرأةً من قريش بمكة ، وكنت أمازحها فأقول :

ومِنَ البليةِ أن تُحِـ ـبّ فلا يُحِبُّك من تُحِبُّه

فتقول هى :

ويَصُدّ عنك بَوجْهِه وتُلِحُّ أنت فلا تُغِبّه (٢)

(١) وفيات الأعيان ج ٣ .

(٢) فى بعض النسخ : «وتلج أنت فلا تغبه» ، والإغباب : الترك ؛ أى فلا تتركه !

(٢٠)

** بأبى مَن زارنى! **

الشاعر «أبو الحسن على بن جبلة» المشهور بالعَكَوّك أحد فحول الشعراء المبَرِّزين ، يقول فيه الجاحظ كان أحسن خلق الله إنشادا ، ما رأيت مثلهُ بدويا ولا حضريا ، وكان من الموالى ، وولدأعمى ، وكان أسود أبرص ، ومن مشهور شعره :

بأبى من زارنى مُكْتَتِمَا
خائفا من كلّ شىءٍ جَزِعا
زائرًا نمّ عليه حُسْنه
كيف يُخْفِى الليلُ بدرًا طَلَعَا ؟!
رصد الغفلة حتى أمكنتْ
ورعى السامرَ حتى هجعَا
ركبَ الأهوال فى زورته
ثم ما سلّم حتى ودّعا !

(٢١)

من العجائب !

* حجة الإسلام «الغزالى» يُرْوَى له شعر ، فمن ذلك ما نسبه إليه الحافظ «أبو سعد السمعانى» فى «الذيل» وهو قوله :

حَلّت عقاربُ صُدْغه (١) فى خدّهِ
قمرًا فجَلّ بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحلّ ببُرْجِها
فمن العجائب كيف حلّت فيه ؟!

* ويقول ابن خلكان :

ورأيت هذين البيتين فى موضع آخر لغيره ، والله أعلم .

(١) يشبهون الشعر الملتوى على الخدين بعقارب الصّدغ ، وبالواوات ، ويقولون : هذه الواو فى الكلام أحسن من واوات الأصداغ على خدود الملاح !

(٢٢)

أيعشق الإنسان ما لايرى ؟!

* الشاعر «أبو العز موفق الدين المِصْرِى» له ديوان شعر رائق ، وكان ضريرا ، فمن شعره :

قالوا : عَشِقْتَ وأنت أعمى
ظبْيًا كحيلَ الطرف ألْمى (١)
وحُلاه ما عاينتها
فتقول : قد شغلتك همًّا
وخياله بك فى المنا
م ، فما أطاف ، ولا ألما
من أين أرسل للفؤا
دِ - وأنت لم تنظره - سَهْمَا
وبأىّ جارحة وصَلْـ
ـت لوصفه نثرًا ونظمَا ؟!
فأجبت : إنى مُوسَ
وىّ العِشق : إنصاتا وفهما
أهوَى بجارحة السما
عِ ، ولا أرى ذاك المسمّى

(٢٣)

* وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإن هذه الأبيات تذكرنا بقول ضرير آخر:

وغادةٍ قالتْ لأَتْرابها : ياقومِ ، ما أعجبَ هذا الضرير؟!
أيعشَقُ الإنسانُ مالاَيَرى ؟ فقلت - والدمع بعينى غزير - :
إن لم تكنْ عَيْنى رأت شخصَها فإنها قد مَثُلَتْ فى الضمير

* ومن قبلهما قال بشار :

ياقوم ، أُذْنى لظَبْى الحىّ عاشقة
والأُذْنُ تعشقُ قبل العين أحيانا (٢)

---

(١) اللمَى : سمرة محببة فى الشفتين ، وهو أَلْمى ، وهى لمياء !
(٢) ويروى * ياقوم ، أذنى لبعض الحى عاشقة * وقد تقدم الكلام فى بشار.

(٢٤)

نادرة طريفة !

حكى «ابن خلّكان» إنه كان بأصبهان رجل حسن النعمة كامل المروءة يقال له: «سماك بن النعمان» وكان يهوى واحدة من أهل «أصبهان» لها قدر تعرف بأم عمرو. فلإفراط حبه إياها ، وصبابته بها ، وهبها عدة من ضياعه ، وكتب عليه بذلك كتُبًا ، وحمل الكتب إليها على بغل فشاع الخبر بذلك ، وتحدث الناس به واستعظموه !

وكان بـ «أصبهان رجل متجلف بينّ الركاكة يهوى أخرى فلما اتصل بها ظن أن «سماكا» إنما أهدى إلى «أم عمرو» «جلودا بيضا» لاكتابة [1] فيها ، وأن هذا من الهدايا التى تستحسن ، ويجل موقعها عند من يهواها، فابتاع جلودا كثيرة، وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية «سَمّاك» فلما. وقفت على الخبر فيها تغيظت عليه ، وكتبت إليه رقعة تشتمه ، وتحلف أنها لا تكلمه أبدا، وسألت بعض الشعراء أن يعمل لها أبياتا فى هذا المعنى لتودعها ردها عليه ، ففعل ، وكانت الأبيات :

لا عادَ طوْعَك مَن عَصَاكا ... وحُـرِمتَ من وصلى مُناكا

فلقد فضحتَ العاشقيـ ... ـن بقُبح ما فعلت يداكا

أرأيت من يُهدى الجُلو ... دَ إلى عشيقته سواكا ؟!

واظن أنك رُمت أن ... تحكى بفعلك ذا سماكا

ذاك الذى أهدى الضِّيـ ... ـعَ لأُمّ عمرٍو والصُّكاكا

فبعثت منتنةً كأنّ ... ك قد مسحت بهنّ فاكا

من لى بقربك يا رقيـ ... ـعُ ، ولستُ أهوَى أن أراكا

لكنْ لَعَلّىَ أن أقطّـ ... ـعَ ما بعثتَ على قفاكا!

---

(١) لازخارف.

(٢٥)

لك جِسْمى تُعلّه !

«سيف الدولة الحمدانى» ، يقول عنه أبو منصور الثعالبى : كان بنو حمدان ملوكا أوجُهُهم للصَّباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة !

ويحكى أن ابن عمه أبافراس كان يوما فى نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة : أيكم يُجيزُ قولى ، وليس له إلاسيدى ، يعنى أبا فراس :

لك جِسْمِى تُعِلُّه فَدَمِى لِمْ تُحِلّه ؟

فارتجل أبو فراس قائلا :

إن كنتُ مالكًا فَلِيَ الأمرُ كُلُّهُ

فاستحسنه سيفُ الدولة ، وأعطاه ضيعة بأعمال منبج تغلّ ألفى دينار فى كل سنة !

(٢٦)

** .... وكنت أُعَيِّرُها بالسواد ! **

* «نجم الدين أبو يوسف يعقوب بن صابر» الشاعر المشهور كان متقدما فى صناعة «المنجنيق» [١] وما يتعلق به ، وكان يقول الشعر ، ويقول فى ذلك :

كَلِفْتُ بعلم المنجنيق ورميه لهدم الصَّيَاصِى [٢] ، وافتتاح المرابط
وعدت إلى نظم القريض لشقوتى فلم أخلُ فى الحالين من قصد حائط

* وأنشد فى جارية سوداء كان يهواها ، وهى جارية حبشية :

وجارية من بنات الحُبُوش
ذاتُ جفونٍ صِحاحٍ مِراض

(١) آلة لرمى الحجارة . (٢) الصياصى : الحصون . مفردها : صيصة .

تعشَّقتُها للتصابى فشبتُ
غرامًا ، ولم أك بالشيب راضْ
وكنت أُعَيِّرُها بالسوادِ
فصارت تُعَيّرنى بالبياض

(٢٧)

** من العجيب ! **

الشريف ابن عبيد الله كان رئيسا جوادا كثير الإحسان ، وله شعر جاء فيه :

قالوا : سلا ؛ صَدَقُوا عن السُّ ... لوانِ ليسَ عَنِ الحبيب
قالوا : فلِمْ تَرَكَ الزّيا ... رَةَ ؟ قلت : من خوفِ الرقيب!
قالوا : وكيف تعيشُ مع ... هذا ؟ فقلتُ : من العجيب !

(٢٨)

** مُلْحة لبعض الحجازيين [1] **

خَبّرُوها بأنّنِى قد تزوّجْـ ... ـتُ فظَلّت تُكاتِمُ الغيظَ سِرًّا
ثم قالت لأُختِها ولأُخْرَى ... جَزَعًا : ليتَه تزوّجَ عَشْرَا !
وأشارت إلى نِسَاءٍ لدَيْها ... لا تَرَى دونَهُنّ للسِّتْرِ سِتْرا :
ما لِقَلْبى كأنّهُ ليسَ مِنّى ... وعِظَامِى كان فيهن فَتْرَا [2]
من حديث نَمَى [3] إلىَّ فظيعٍ ... خِلْتُ فى القَلْب من تَلظّيه [4] جَمْرَا ؟!

---

(١) انظر ديوان الحماسة بشرح التبريزى ٢ /٣٩٨
(٢) فَتْرًا : فتورًا ، واسترخاء فى الأعضاء والمفاصل حتى كانها لا تكاد تقوى على حملى !
(٣) نمى إلىّ : وصل إلى علمى وبلغنى .
(٤) تلظيه : توقده .

(٢٩)

** طيف الخيال ! ؛ وشباك المحب ! **

طيف الخيال : رؤيا العَين فى المنام !

ولقد تفنن فيه الشعراء والمحبون فكانت لهم طرائف مع الطيف !

* يقول أحدهم :

نَصَبَتْ جفُونى للخيال حبائلاً

لَعَل خيالاً فى الكرى منه يَسْمَحُ [1]

وكيف إذا أغْمَضْتُهُنَّ بصيدِهِ

ومن عادة الأشرك للصيدِ تُفْتَحُ ؟!

* ويقول الشاعر كشاجم :

لقد بَخِلَتْ حتى بطيف مُسَلِّمٍ

علىّ ، وقالت : رحمة لنَحِيبِى

أخاف على طيفى إذا جاء طارقًا

وناداك ، أن يلقاه طيفُ رقيبى !

(٣٠)

** طعم الهجر ! **

* سئلت إحداهن :

كيف وجدتِ طعمَ الهجر ؟

فقالت : لولا مرارة الهجر ، ماعرفت حلاوة الوَصْلِ

ومَن ذَمّ بَدْءَ الغضب ، حَمِدَ عاقبةَ الرضا !

---

(١) الحبائل : جمع حِبالة ، وهى شبكة الصياد . والكرى : النوم .

(٣١)

** ياقلبَها ! أحديد أنت أم حجر ؟**

* ويقول المؤمّل وأحسن :

إنى قُـتلتُ بلاَ جُـرْمٍ ، وقـاتِلَتى ... ياقوم جارية فى طرفِها حَوَرُ[1]

لمّا رَمَتْ مُهْجَتى قالت لجارتها : ... إنى قَـتَلْتُ قـتيلا ماله خَطَرُ[2]

قـتلتُ شاعرَ هذا الحَىِّ مِن مُضَرٍ ... فالله يعلم ما ترضى بذا مُضَرُ

شكوتُ ما بى إلى هند فما اكترثَتْ ... يا قلبَها ! أحديدٌ أنت أم حَجَرُ ؟!

إن كنتِ جاهلةً بالحبّ فانطلقى ... إلى القُبُورِ ففيمن حَلّها عِبَرُ!

(٣٢)

** الرشيد وجارية له ! **

* كان الرشيد قد هجر جارية[3] له اسمها «ماردة» ، ونفسه بها متعلقة ، وكان يتوقع أن تبدأه بالترضى ، لكنها لم تفعل حتى أقلقته ، وأرّقته ، وبلغ ذلك الشاعر : العباس بن الأحنف فقال :

صدت مغاضبة وصد مغاضبا
وكلاهُمَا مِمّا يُعَالِجُ مُتْعَبُ

راجع أحبتك الذين هجرتهم
إن المتَـيَّمَ قلمـا يتـجنب

إن التـجنُّبَ إن تَطَاوَلَ مِنْكُمَا
دَبّ السُّلُوُّ لَهُ فـعَـزّ المطْلَبُ

* وبعث إليها بالأبيات ، وبعث إليه ببيتين آخرين وهما :

لابُدّ للعـاشِقِ من وَقْـفَـةٍ
تكون بين الوَصل والصَّـرْمِ[4]

---

(١) الحور شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها .
(٢) لا شأن له . (٣) الأغانى : ٥ / ٣٨ . (٤) الصَّرم : القطع ضد الوصل .

حـتى إذا الهـجـرُ تمادَى به

راجع مَن يهـوى على رَغْمِ

فاستحسن الرشيد إصابته حاليهما ، وقال : أراجعها - والله - مبتدئا على رغمى ، وأمر للعباس بصلة سنية ، وأمرت الجارية له بمثلها .

(٣٣)

** تقاطعا فى بيتين ، وتواصلا فى بيتين ! **

قال لها ، وقد سلاها ، فراح يكاشفها بمشاعره نحوها : ألم تَسْمَعِى قول الشاعر :

وكنت أحبكم ، فسَلوْتُ عنكم

عَلَيْكُمْ فى دِيَارِكُمُ السَّلامُ ؟

فقالت : نعم لم أسمعه ، وإنما أذكر قول الشاعر :

تحمل أهلها عنها ، فبانوا

على آثارِ من ذهب العفاء [1]

فاستحيا منها وندم ، وبدّل بالسلوّ كَلفا بها ووجدا ، فقال أتذكرين قول الشاعر :

واخضعُ بالعُتبى[2] إذا كنتُ مُذْنِبًا

وإن أذنبَتْ كنتُ أنا الذى أتَنَصَّلُ

فقالت : وأذكر أحسن منه :

فإن تُقبلوا بالوُدّ نُقْبِل بمثلِهِ

ونُنْزِلُكُمْ مِنّا بأقـربِ مَنْزِلِ

فأقبل عليها ، وراح يتودَّدُ لها ؛ فتقاطعا فى بيتين؛ وتواصلا فى بيتين ؛ .

وما شعر بهما أحد ؛

(١) تحمل أهلها : رحلوا . وبانوا : بعدوا - العفاء : الزوال.

(٢) العتبى : الاعتزار حتى ترضى ، وإزالة أسباب العتاب .

(٣٤)

** العاشقان وطالب العلم ! **

يحكى أنَّ أحدَ «طلبة العلم» جلس على جسر بغداد يتنزه ، فأقبلت «فتاة بارعة الجمال» فى جهة الرّصافة إلى الجانب الغربى ، فاستقبلها شاب فقال لها :

- رحم الله «على بن الجهم!» .

فقالت الفتاة : ورحم اللهّ «أبا العلاء المعرى!» .

- وما وقفا بل سارا ، كل فى طريقه !

فتعجب طالب العلم مما سمعه ! ، وقال : فتبعتُ الفتى ، وقلت له :

واللهّ إن لم تقل لى : ما أردت بابن الجهم كان لى معك شأن !

قال : أردت به قوله :

عُـيُـون المهَـا بين الرُّصـافـة والجِـسْـر

جَلَبْن الهَـوَى من حـيث ندرى ولا ندرى ! (١)

وعنت هي بأبى العلاء قوله :

فـيـادارَهـا بالخـيْفِ إنَّ مَـزَارَهـا

قـريب ، ولكنْ دُون ذلك أهوالُ ! (٢)

(٣٥)

** ريحُ الصَّبا ! **

«**أبو نصر محمد بن عبد الله الأرغيانى**» الشافعى كان إماما مفتيا ورعا ، وسمع الحديث من الواحدى صاحب التفاسير ، وروى عنه فى تفسير قوله

(١) المها : البقرة الوحشية يشبه بها لاتساع عيونها .
(٢) الخيف : اسم مكان فى سفح الجبل .

تعالى : ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٤]

أن ريح الصبا استأذنت ربها - عز وجل - أن تأتى «يعقوب» - عليه السلام- بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص ، فأذن لها ، فأتته بذلك، فلذلك يستروح كل محزون بريح الصّبا ، وهى من ناحية المشرق إذا هبت على الأبدان نعمتها ولينتها ، وهيجت الأشواق إلى الأوطان والأحباب ، وأنشد :

أيا جَبَلَىْ نَعْمانَ بالله خَلِّيَا

نسيمَ الصَّبَا ؛ يَخْلُصْ إلىَّ نسيمُهَا

فإن الصَّبا ريحٌ إذا ما تنَسَّمَت

على نفس مهموم ، تجلَّت هُمُومُها !

وإذا كان الشئ بالشىء يذكر ، فمن طرائف «ابن الجوزى» أنه كان له زوجة اسمها «نسيم الصّبا» فاتفق أن طلقها ، فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منهما على التلف ؛ فحضرت فى بعض الأيام مجلسَ وعظه ، فحين رآها عرفها ، فاتفق أن جاءت أمرأتان ، وجلستا أمامه ، فحجبتاها عنه فأنشد فى الحال :

أيا جبلى نعمان باللهِ خَلِّيَا

نسيم الصَّبا إلىّ نسيمُهَا !

(٣٦)

ذات الخمار الأسود !

قدم تاجر إلى المدينة يحمل من العراق أغطية للوجه فباع الجميع إلا ما كان منها أسود !

فشكا إلى الشاعر «الدارمى» الذى اشتهر بشعره فى الغزل ثم تنسك فى آخر حياته وتعبد ، وتاب إلى اللّه وأناب فعمل له بيتين ، وقال له :

عليك بمن يذيعهما فى المدينة وهما :

قل للمليحة فى الخِمارِ الأسود

ماذا فعلتِ بزاهدٍ مُتعبِّد ؟!

قـد كـان شَـمَّـر للعـبـادة ذَيله

حـتى وقـفتِ له بـبـاب المسـاجـد !

فلم تبق فى المدينة مليحة إلا اشترت لها خمارًا أسود !

(٣٧)

سيف الدولة وإحدى جواريه !

يحكى أنه كان لسيف الدولة «جارية من بنات ملوك الروم» لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الريح الهابّة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه ، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سُمّ أو غيره ، وبلغ سيف الدولة ذلك ، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطا على روحها ، وقال :

راقبتنى العُيون فيك فأشْفقْ

تُ ، ولم أخْلُ قطُّ من إشـفـاقِ

ورأيت العَـذُولَ يحـسُدنى فـيـ

ـكِ مُـجـدّا يا أنفسَ الأَعـلاقِ [1]

فـتـمنيتُ أن تَكونى بعـيـدًا

والـذى بـيـنـنـا مـن الـوُدِّ بـاقِ

رُبَّ هجرٍ يكونُ من خوف هَجْرٍ !

وفـراقٍ يكونُ خـوف فـراقِ !

(٣٨)

* و مما أنشده ابن خالويه بحلب لسيف الدولة :

تجنَّى علىّ الذَنْبَ ، والذَّنبُ ذَنْبُـهُ

وعاتبنى ظُلْما ، وفى نفسه العَتْبُ

وبعد .. فتعال إلى أصدق التجارب التي مر بها محبون ..

---

(١) الأعلاق : جمع عِلق ، وهو الشىء النفيس .

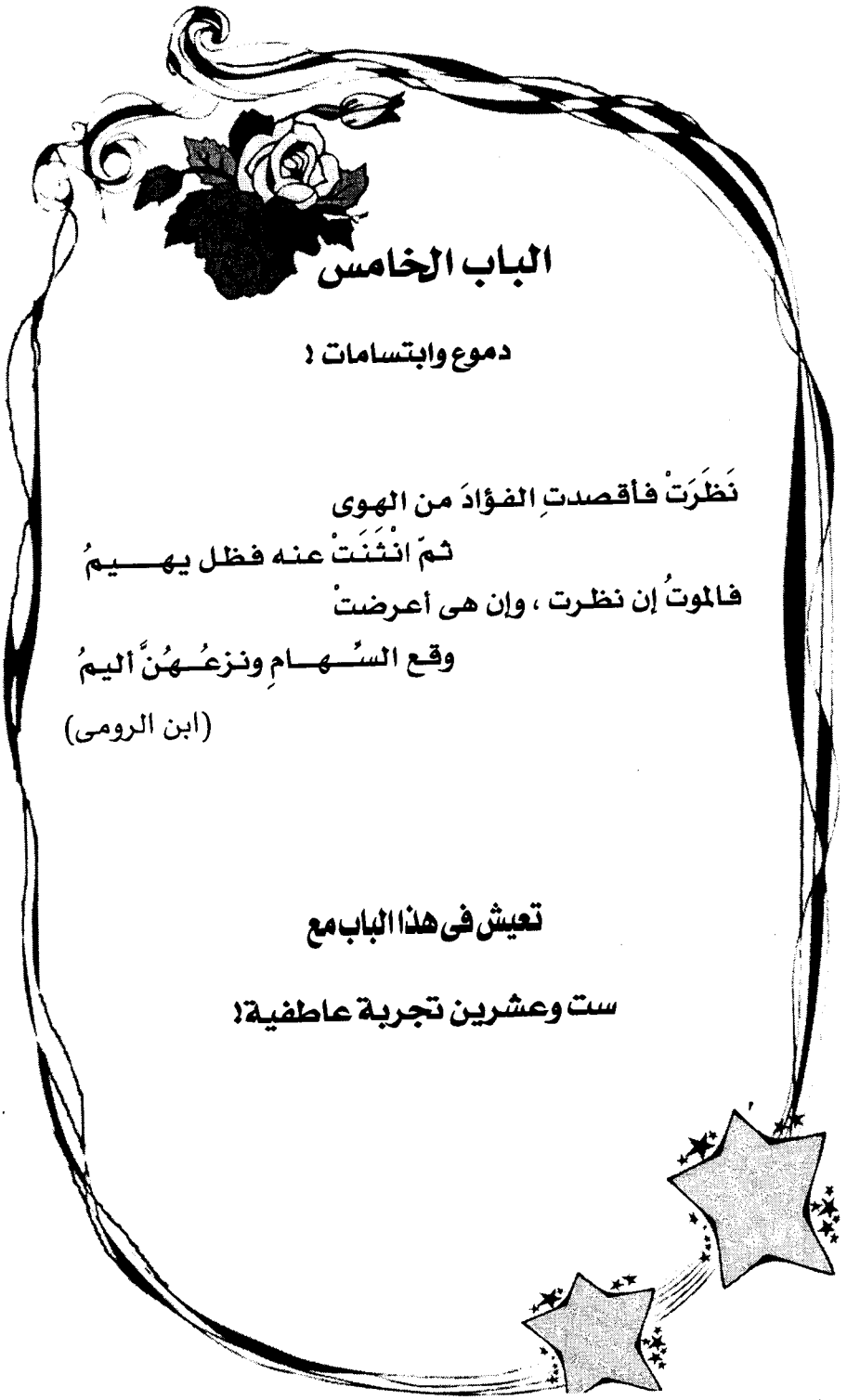

الباب الخامس

دموع وابتسامات !

نَظَرَتْ فأقصدتِ الفؤادَ من الهوى
ثمّ انْثَنَتْ عنه فظل يهـــيمُ
فالموتُ إن نظرت ، وإن هى أعرضتْ
وقع السِّـــهـــامِ ونزعُـــهُنَّ أليمُ

(ابن الرومى)

تعيش فى هذا الباب مع

ست وعشرين تجربة عاطفية!

(١)

** هذا حال العاشقين ، وتلك تجاربهم ! **

* يقول من جربّ الحُبّ ، ورضى بالواقع :

وا رَحـمـتَـا للعـاشـقـينا !

مـا إن أرى لهم مُـعِـينَا !

كَمْ يُهـجَـرُون ويُظلَمُـو

نَ ، ويُقْطَعُـون فَـيـصْـبِـرُونا !

وتـراهـمُ ممـا بـهـمْ

بَيْنَ البَـريّةِ خـاشـعـينا !

يـتـجـلّـدونُ ، ويُظـهِـرو

ن تجلُّدًا لـلشّـامـتـينا !

(٢)

* أما الجديدُ فى دنيا الحُبّ غيرُ المجرّب ، فيقول متسائلا :

كُلُّ يَوْمٍ قطيـعـةٌ وعِـتـابُ !

ينْقضى دَهْرُنا ونحن غِضابُ !

ليتَ شِعـرى ! انا خُصِـصْتُ بهـذا

دُونَ ذَا الخَلْقِ ، أم كذا الأحباب ؟!

(٣)

* فيردّ عليه آخر قد لاقى ما لاقى فى حبه ؛ فيقول :

ابيتُ كـأنى للكواكبِ عـاشقٌ

فـأكـثـرُ همّىَ أن تـزُولَ الكواكبُ

عَـجِبْتُ لما يَلْقَى من العشق اهلُه

وفيما يُلاَقى العاشقون عَجائبُ

(٤)

* وهذا مُحبٌ متفائل سعيد بمحبوبته فى رضاها وغضبها ، فيقول :

أُمازِحُها ، فتَغْضَبُ ثم تَرْضى

وكُلُّ فَعَالِها[1] حَسَنٌ جميلُ

فإن تغضب ؛ فأحسنُ ذاتِ دلّ

وإن ترضَ ؛ فليس لها عديلُ

(٥)

* ومسكين كُثير مع عزة .. إنه يقول لها :

تجَافَيْتِ عَنّى حين لالِىَ حيلةٌ

وخلّفتِ ما خلّفْتِ بين الجوانح

(٦)

* أما مجنون ليلى فقد كان مسيطرا على نفسه يكتم هواه ثم بلغ به الأمر أن ردّد شعره الرائح والغادى ، فيقول :

قد كنتُ أعْلو حُبّ ليلى فلم يَزَل

بىَ النقضُ والإبرامُ حتى عَلانِيَا

(٧)

* ولحنُ القَولِ[2] يعرفه السامع بفحواه دون تصريح ، وهو ممدوح فى المحبوب ، ولذا نرى المحب يقول :

مَنْطِق صائب ، وتلْحن أحيانًا

وخير الكلام ما كان لَحنًا

---

(١) الفَعال : بفتح الفاء - الفعل حسنا كان أم قبيحا ، إذا كان من جانب واحد ، وأيضا العمل الجيد .

(٢) لحن القول : فحواه ، وما يفهمه السامع بالتأمل فيه من وراء لفظه ! وما يفهم من بين السطور .

(٨)

* وابن المعتز الخليفة الذى لم يمكُث فى الحكم إلا يوما يشكو خداع المحبوب ، وكذب وعوده فيقول :

كلامهُ أخدعُ من لحظه [1]

ووعدهُ أكذبُ من طيْفِه !

(٩)

* وهذا نُصيبٌ الشاعر كانت له أمنية ربما ساعدته على رؤية المحبوب فيقول :

وددت - ولم أخلق من الطّيْرِ أنّنى

أُعارُ جَنَاحَىْ طائرٍ فأطيرُ

(١٠)

* ومثله ذلك الذى يناجى «سرب القطا لعله يُعير جناحه !

أَسرِبْ القطا ؛ هل مَنْ يُعيرُ جناحه

لَعَلّى إلى مَن قد هَوِيتُ أطيرُ ؟!

(١١)

* والعَرّجىّ يُسائل ظبيات القاع فى شك فيقول :

بالله ياظبيات القاع ؛ قُلْنَ لنا :

ليلاى منكنّ ، أم لَيْلَى من البشر ؟

(١٢)

* وللشعراء من «الملامة فى الحب» موقف :

فأبو الشيص يجدها لذيذةً فيقول :

---

(١) اللحظ : النظر بمؤخر العين من أحد جانبيه .

أجـدُ الملامــة فـى هواك لـذيذةً

حُـبّـا لـذكـرك فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

(١٣)

* وأبو الطيب يرى عكسَ هذا ؛ فيقول :

أأُحـبُه وأُحِبُّ فـيه مَـلاَمَـةً إن المَلامــةَ فـيــه من أعـدائه

(١٤)

* وتَحَارُ الأفكارُ فى سَبَبِ الحبّ : العين أم الأذن ؟!

هناك من يقول : العين ، وهناك من يقول : الأُذن ؛

فتعال إلى ما انفرد به المحدثُون ، وهو قول بشار - وقد كان أعمى - حيث يقول :

أُذُنى لبعض نساء الحَىّ مُصْغِيَةٌ

والأُذنُ تعشق قبل العَيْنِ أحْيَانَا [1]

قـالوا : بمن لاترى تهـذى ؟! فـقلت لهم :

الأُذُن كالعين ؛ توفى القلب ما كانا !

(١٥)

* ويقولون فى أمثالهم : «مقتَل الإنسان بين فكيْه» فقد يورده لسانهُ المهالك! ولكن المحبين لهم رأى آخر فقد يكون مقتله فى عينيه ؛

يقول ابن الرومى :

عيْنى لعينك حين تنظر - مَقْتَلُ

لكنّ لحْظك سهْم حَتْفٍ مُرْسَلُ

ومن العـجـائب أن مـعـنًى واحـدًا

هو منْك سـهْم ، وهو منّى مَـقْتَلُ

---

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت ، فى قصة حب بشار.

(١٦)

* ويرْصدُ ابنُ الرومى سهام العين ، ويحدثنا عن وقعها فيقول :

نظرت ؛ فأقصدت [١] الفؤاد بلحظها

ثم انثنتْ عنه ، فظل يهيمُ

فالموت إنْ نظرتْ ، وإن هى أعرضتْ

وقْعُ السِّهامِ ، ونزْعُهنّ أليم

(١٧)

* وعند العتاب يلتمسُ المُعَاتبُ الجوابَ ، فيقول كثيّر :

تقولُ : مرضنا فما عُدْتَنَا

وكيف يعودُ مريضٌ مريضا ؟!

(١٨)

* وليلُ المحبّ بلا آخر ، فكم شكا المحبون طول ليلهم ، وتقلبهم على الشوك!

قال ثعلب : ما أحد من الشعراء تكلم فى الليل الطويل إلا قارب [٢] ، ولكن خالدًا الكاتب أبدع فيه فقال:

رقدت فلمْ تَرْثَ [٣] للساهر

وليلُ المحبِّ بلا آخر

ولم تدْر بعد ذهاب الرُّقا

دِ ما صنع الدّمْعُ بالنّاظر ؟!

---

(١) أقصدت : رمت ، وأصابت .

(٢) قارب : أى قارب الوصف ، وأجاد وبلغ الغاية !

(٣) لم ترثِ : لم ترق ، ولم ترحم .

(١٩)

* ويقول آخر مثل قول خالد :

كـــــأنَّ لَـيْـلِـيَ كُـلَّـه أوّلٌ فيـها ، فلا يُقْضى له آخر !

(٢٠)

* والمحب الصادق كلما عنت له خطرة من السلوّ ردّه الحب الصادق عما كان عزم عليه ، وقد أحسن البُحْتُرِيُّ بقوله :

أحنو عليكِ ، وفى فؤادىَ لوعة

وأَصْدُف عنك ، ووجهُ وُدّىَ مُقبل

وإذا طلبتُ وصالَ غيرِك ردّنى

ولَهُ إليكِ ، وشـــافِعٌ لكِ أوّلُ!

(٢١)

النهرُ والبحيرة !!

قالت : علامَ أرى الغديرْ

أبدا على عَجل يسيرْ ؟!

مـــوْصُـــولة أناتُه

وشَجِيّةٌ نَغَماتُه

أفليس يأخذهُ الملال

أفليس يَرزَحُ من كَلال ؟!

فأجبتُها : لا تذهلى

من سيره المستعجل

النهر صبّ حائرٌ

نحو البحيرة سائر

إذ يهفوان وينشدان

وبغبطة يتمازجان

(٢٢)

باللهِ قُل خبرك !

مضت ثلاث ليال لم ير فيها «البهاء زهير» من يحبُّ فقال :

باللهِ قُلْ لى : خـــبـــرَك

فـلـــى ثـــلاثٌ لـــم أرك!

يـاأســـــــبـقَ الـنـاسِ إلـى

مَـــودّتى مـــا أخّـــرك ؟!

وناظـرى إلـى الـطَّـريـ

ـق لَـم يَـزَل مُـنْـتَـظِـرَكْ

بين جُـفـــونى والكَرى

مُـذْ غـبتَ مُـعْـتَـــرَك

كـــيف يا مُـــعَـــذِّبِى

قطعتَ عنّى خَـــبـــرَك

ومنْ غـــرامى كلمـــا

لامك قلبى - عـــــذرك

وحق عـــينيْك لقـــد

نصَـبْتَ عـــينيك شـــرك

وحـــاسـدٍ قـــال فـمـــا

أبْـــقَـــى لـــنـــا ولا تَـــرَك

مـــازال يَسْـعَى جُـهْـدَه

ياظبىُ حـــتى نفّـــرك !

(٢٣)

أحلى الحوار

لقد كان عتابها أرق من نسيم ، وكان رَدُّهُ أحلى من الشهد ، فتواصلا ولم

ينقطع حبل الود ! وهكذا يكون الحوار !

قالت : كحلت الجُفُونَ بالوسَنِ

قلت : ارتقابا لطيفك الحَسَنِ

قالت : تَسَلّيْتَ بعد فُرْقَتِنَا

فقلت : عن مسكنى ، وعن سكنى

قالت : تشاغلتَ عن مَحَبَّتِنا

قلت : نعم بالبُكاءِ والحَزَنِ

قالت : تخليت ؛ قلت عن جَلَدِى

قالت : تغيرتَ : قلت : فى بَدَنِى

قالت أذعت الأسرار، قلت لها :

صَيِّر سِرّى هواكِ كالعَلَنِ

قالت : سَرَرْتَ الأعداءَ ، قلت لها :

ذلك شىءٌ لو شئتِ لم يَكُنِ !

قالت : فما تروم؟ قلت لها :

ساعة بالسَّعْدِ تسعدنى !

(٢٤)

بيت شعرى شريف !

قال «صالح بن حَسّان» يوما لمن حوله :

هل تعرفون بيتا شريفاً فى «امرأة خَفرَةٍ» (حييّة) ؟

قالوا: نعم بيت حاتم ؛ إذ يقول :

يُضىء بها البيتُ القليلُ خِصَاصُه

إذا هى ليلاً حاولتْ أن تَبَسَّمَا

قال : لم يصف شيئا .

قلنا : فبيت الأعشى الذى يقول :

كـــأن مِـــشْـــيَـــتَـــهـــا من بيتِ جـــارتِهـــا
مَـــــرُّ السَّـــــحَـــــابَةِ لاريـثٌ ، ولا عَـــــجَلُ

قال : قد جعلها خرجت ، وهذا ضد الخفر !

قلنا : هات ما عندك ...

قال قول «قيس بن الأسلت» وهو من شعراء الجاهلية :

ويُكْرِمُـــهـــا جـــاراتُـــهـــا فـــيـــزُرْنـهـــا وتعـــتَلّ عن إتيـــانهن ؛ فـــتـــعـــتـــذر

(٢٥)

أوّاه ! لو تصدق «ياليتنى!»

لإيليا أبى ماضى حول «ياليت» أبيات ،يقول فيها لمحبوبته ! :

إذا أطل البـــــدر من خِـــــدْرِه فـــــإنما يطلُع كى تنظريه !
وإذا شـــدا البلبل فى عُـــشـــه فـإنما يشدو لكى تسمعيه !
وإن يَـفُـحْ عـطـرُ زهـورِ الـرُّبَـا فـإنما يعـبَقُ كى تَنْشَـقِـيـه !
ياليـتنى البدرُ الذى تنظرين ! ياليـتنى الطيـر الذى تسـمعين !
ياليـتنى العطر الذى تَنْشَقِين ! أوّاهُ لو تصـــدق : «ياليـــتنى!»

(٢٦)

قالت .... !!

كثيرا ما يدور حوار بين المحب وطيف خيال المحبوب ، ومن أجمل ما قيل :

قالت لطيف خيال زارها ومضى :

بالله صفه ، ولا تنقص ، ولا تزد

فقال : خَلَّفْتُهُ لو مات من ظمأ

وقلت: قِفْ عن ورود الماء لم يَرِدِ

قالت : صدقت ! «الوفا فى الحب عادته»

يابرَد ذاكَ الذى قالتْ على كَبِدى !

أما بعد ... فأرجو أن يكون أشهر قصص العشاق والمتيمين ، وطرائفهم ، وتجاربهم قد أسعدتك وأمتعتك ، ونالت رضاك واستحسانَك !! وهذا كل ما نرجوه !!

الفهرس

مقدمة المؤلف ٣

بين يدى الحب ! ٥

الباب الأول ..... من ١٢ - ١٠٨

مشاهير العشاق ومعشوقاتهن !

[تسعة عشر عاشقاً تضمنتهم مرآة الباب]

الباب الثاني ..... من ١٠٩ - ١٣٥

أعجب قصص الحب !

[تسع عشرة قصة تضمنها مرآة الباب]

الباب الثالث ..... من ١٣٦ - ١٥٦

أروع ما تبادله المحبوب من رسائل شعرية وعبارات وُدّية

[تسعة ألوان تضمها مرآة الباب]

الباب الرابع ..... من ١٥٧ - ١٧٩

أحلى ما يروى عن المحبين من طرائف !

[تسع وثلاثون طرفة]

الباب الخامس ..... من ١٨٠ - ١٩٠

دموع وابتسامات !

[ست وعشرون تجربة تصور حال العاشقين]

رقم الإيداع: ٩٩ / ١٩٣٣
977-277-161-6